شيخ الإسلام ابن تيمية*

ليس في وسعي أن أحيط وصفاً بمواهب علامة الشرق الامام أحمد المعروف بابن تيمية الحراني الدمشقي ، فقد طبق الأرض بعصره علماً وإصلاحاً ، وملأ الكون صدعاً بالحق وجهاداً ، وسارت بعلومه الركبان ، وعطر أريج شمائله وأعماله الأرجاء .

في أرض دمشق غرست شجرة الاصلاح يد ابن تيمية فأثمرت ونضجت ، ومن سمائها سطعت شمس السنة الغراء ، فأضاءت وعمّت ، وفي أجوائها علت صيحة الحق ففزعت جيوش البدع والأوهام ؛ وليس من غرضي أن أذكر كل ما قيلَ في ترجمة هذا النابغة الكبير ، فهو كما قال الذهبي ، أعظم من أن تصفه كلمي ، أو ينبه على شأوه قلمي ، فان سيرته وعلومه ، ومعارفه ومحنه ، وتنقلاته ، يحتمل أن توضع في مجلدين : وانما القصد أن نقتبس من نور خدمته العلمية ما ينير لنا طريق الحياة في سيرنا العلمي .

مولده ومنشؤه وتحصيله ومؤلفاته

قال العلامة الألوسي صاحب جلاء العينين (ص ٤) : في تاريخ مؤرخ الاسلام الحافظ الذهبي ، وتاريخ الحافظ ابن حجر العسقلاني شارح البخاري ، وتاريخ الحافظ ابن كثير ، وتاريخ فوات الوفيات للكتبي ، وشذرات الذهب لابن العماد ، وتاريخ ابن الوردي ، وغيرهم : هو شيخ الاسلام ، وحافظ الانام ، المجتهد في الأحكام ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد

(*) محاضرة الاستاذ محمد بهجة البيطار ألقيت في قاعة المجمع العلمي العربي في نيسان سنة ١٩٢٣ ، ثم نقحت واضيف اليها صفحات في تاريخ هذا الامام العظيم ، رحمه الله .

الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي ، وفي تاريخ اربل[1] أن جده سئل عن اسم (تيمية) فاجاب أن جده حج وكانت امرأته حاملاً فلما كان بتيماء — بلدة قرب تبوك — رأى جارية حسنة الوجه وقد خرجت من خباء ، فلما رجع وجد امرأته قد وضعت جارية فلما رفعوها اليه قال : يا تيمية ، ياتيمية ، يعني أنها تشبه التي رآها بتيماء ، فسمي بها انتهى . وفي فوات الوفيات : وقال ابن النجار : ذكر لنا أن محمداً هذا (أي الجد الأعلى لابن تيمية) كانت أمه تسمى تيمية وكانت واعظة فنسب اليها وعرف بها اهـ . ولد بحران[2] يوم الاثنين عاشر ربيع الاول سنة احدى وستين وستمائة وقدم به والده وباخويه عند استيلاء التتار على البلاد الى دمشق سنة سبع وستين وستمائة ، فأخذ الفقه والاصول عن والده . وسمع عن خلق كثيرين منهم الشيخ شمس الدين ، والشيخ زين الدين بن المنجا ، والمجد ابن عساكر ، وقرأ العربية على ابن عبد القوي ثم أخذ كتاب سيبويه فتأمله وفهمه ، وعني بالحديث وسمع الكتب الستة والمسند مرات ؛ وأقبل على تفسير القرآن الكريم فبرز فيه ، وأحكم أصول الفقه والفرائض والحساب والجبر والمقابلة وغير ذلك من العلوم ، ونظر في الكلام والفلسفة وبرز في ذلك على أهله ، وردّ على رؤسائهم وأكابرهم ، وتأهل للفتوى والتدريس وله دون العشرين سنة ، وتضلع في علم الحديث وحفظه حتى قالوا : إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث ، وأمده الله تعالى بكثرة الكتب وسرعة الحفظ وقوة الادراك والفهم ، وبطء النسيان ، حتى قال غير واحد انه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه ؛ وألف في أغلب العلوم التأليفات العديدة ، في التفسير والفقه والأصول والحديث والكلام والردود على المبتدعة ، وله الفتاوى المفصلة ، وحل المسائل المعضلة ، وقد ذكر طائفة من مؤلفاته وعدّ منها كتاب بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول أربع مجلدات ، وإثبات المعاد

(١) بلدة في شمال العراق تقع الى الشرق من الموصل .
(٢) حران : بلد قرب الرها (اورفة) من أرض الجزيرة بين دجلة والفرات ، هي من بلاد الأناضول

وكتاب ثبوت النبوات عقلاً ونقلاً ، وكتاب الرد على الحلولية والاتحادية ، وكتاب الدرة المضية في فتاوي ابن تيمية ، وكتاب إصلاح الراعي والرعية ، ثم قال الذهبي : وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدا اهـ وقال الحافظ الذهبي : انه نشأ في تصوّن تام وعفاف ، وتأله وتعبد ، واقتصاد في الملبس والمأكل ، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره ، ويناظر ويفحم الكبار ، ويأتي بما يحار منه أعيان البلد في العلم ، فأفتى وله تسع عشرة سنة بل أقل ، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت ، وأكب على الاشتغال ، ومات والده وكان من كبار أئمة الحنابلة ، فخلفه في وظائفه وله احدى وعشرون سنة ، واشتهر أمره وبعد صيته في العالم ، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع من حفظه ، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم وذلك بتؤدة وصوت جهوري فصيح ، وكان آية في الذكاء وسرعة الادراك ، رأساً في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف ، بحراً في النقليات . فريد عصره علماً وزهداً وشجاعة وسخاء ، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، وكثرة تصانيف ، وقرأ وحصل وبرع في الحديث والفقه وتأهل للتدريس والفتوى وهو ابن سبع عشرة سنة ، وتقدم في علم التفسير والأصول ، وجمع علوم الاسلام أصولها وفروعها ودقيقها وجليلها ، (إلى أن قال) وكان له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين ، وقل أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها أقوال المذاهب الأربعة .

ثناء الأئمة عليه

قال العلامة الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي في كتابه (الكواكب الدرية)[1] الذي ألفه في مناقب الامام ابن تيمية : قد أكثر أئمة الاسلام ، من الثناء على هذا الامام ، كالحافظ المزي وابن دقيق العيد وأبي حيان النحوي

(١) من « مجموع : الرد الوافر » وما معه من الرسائل طبع مصر سنة ١٣٢٩ هـ

والحافظ ابن سيد الناس والحافظ الزملكاني والحافظ الذهبي وغيرهم من أئمة العلماء.

وقال الحافظ المزي : مارأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه . ومارأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه .

وقال القاضي أبو الفتح بن دقيق العيد : لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه يأخذ ما يريد ويدع ما يريد ، وقلت له ما كنت أظن أن الله بقي يخلق مثلك ! وقال الشيخ ابراهيم الرقي : إن تقي الدين يؤخذ عنه ويقلد في العلوم فان طال عمره ملأ الأرض علماً وهو على الحق ، ولا بد من أن يعاديه الناس لأنه وارث علم النبوة ، وقال قاضي القضاة ابن الحريري : ان لم يكن ابن تيمية شيخ الاسلام فمن هو ؟ . وقال فيه شيخ النحاة أبو حيان لما اجتمع به : ما رأت عيناي مثله ، ثم مدحه أبو حيان على البديهة في المجلس وقال :

لما أبينا تقي الدين لاح لنا ... داعٍ إلى الله فرداً ماله وزر
على محياه من سيما الألى صحبوا ... خير البرية نور دونه القمر
حبر تسربل منه دهرنا حبراً ... بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا ... مقام سيد تيم اذ عصت مضر
وأظهر الحق إذ آثاره درست ... وأخمد الشر إذ طارت له شرر
كنا نحدث عن حبر يجيء فها ... أنت الامام الذي قد كان ينتظر

وقال الحافظ الزملكاني : لقد أعطي ابن تيمية اليد الطولى في حسن التصنيف ، وجودة العبارة والترتيب ، والتقسيم والتبيين ، وقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد . كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن . وحكم أن أحداً لايعرفه مثله (إلى أن قال) :

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلّت عن الحصر
هو حجة لله قاهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهر

هو آية في الخلق ظاهرة ... أنوارها أربت على الفجر

وقال عماد الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم الواسطي عنه : انموذج الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، الذين غابت عن القلوب سيرهم ، ونسيت الامة حذوهم وسبيلهم ، فكان في دارس نهجهم سالكاً ، ولأعنة قواعدهم مالكاً : وقال في ذيل الصفحة الرابعة من كتاب القول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحنبلي : ومما وجد في كتاب كتبه قاضي القضاة أبو الحسن السبكي إلى الحافظ الذهبي في الشيخ تقي الدين ماصورته : وأما قول سيدي في الشيخ فالمملوك متحقق كبر قدره ، وزخارة بحره ، وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهاده ، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائماً ، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل ، مع ماجمع الله له من الورع والزهادة والديانة ونصرة الحق ، والقيام فيه لا لغرض سواه ، وجريه على سنن السلف ، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى ، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان انتهى .

زهده وايثاره

قال ابن فضل الله العمري كان يجيئه من المال في كل سنة مالا يكاد يحصى ، فينفقه جميعه آلافاً ومئين لا يلمس منه درهماً بيده ، ولا ينفقه في حاجته ، بل كان إذا لم يقدر يعمد إلى شيء من لباسه فيدفعه إلى السائل ، وهذا مشهور عند الناس من حاله .

حكى من يوثق به قال : كنت يوماً جالساً بحضرة شيخ الاسلام ابن تيمية فجاءه انسان فسلم عليه فرآه الشيخ محتاجاً إلى ما يعتم به فنزع الشيخ عمامته من غير أن يسأله الرجل فقطعها نصفين واعتم بنصفها ودفع النصف الآخر لذلك الرجل ولم يحتشم للحاضرين عنده : وحدث من يوثق

به أن الشيخ كان ماراً في بعض الأزقة فدعاله بعض الفقراء وعرف الشيخ حاجته ولم يكن مع الشيخ ما يعطيه ، فنزع ثوباً على جلده ودفعه اليه وقال بعه بما تيسر وأنفقه ، واعتذر إليه من كونه لم يحضر عنده شيء من النفقة اهـ .

شجاعة الامام وغيرته على الدين والوطن

أراد ملك الكرج أن يفتك بسكان دمشق من المسلمين ، ويسبي ذراريهم ونساءهم ، فبذل للسلطان غازان — وهو أول من أسلم من ملوك المغول — أموالاً طائلة على أن يمكنه منهم ، فلما اتصل الخبر بالامام قام من فوره وانتدب رجلاً من الوجوه والكبراء وذوي الأحلام الرجيحة وإليك خلاصة ماجرى بأخبار من كان حاضراً ولا ينبئك مثل خبير :

قال في الكواكب الدرية : قال الشيخ كمال الدين بن امنجا : كنت حاضراً مع الشيخ فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان ، ويقرب منه في أثناء حديثه . حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان ، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليته ، مصغ لما يقول ، شاخص اليه لا يعرض عنه وأن السلطان مع شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة سأل من هذا الشيخ فاني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحد منه ؛ فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل ، فقال الشيخ للترجمان قل لغازان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على مابلغنا ، فغزوتنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت : عاهدا فوفيا وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت وجرت ، ثم خرج من بين يديه مكرماً معززاً . بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه الله تعالى ما أراده . وكان أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من

أيديهم ، وردهم على أهليهم ، وحفظ حريمهم ، وكان يقول : لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه .

وأخبر قاضي القضاة أبو العباس أنهم لما حضروا مجلس غازان قدم لهم طعام فأكلوا منه إلا ابن تيمية فقيل : لِمَ لمْ تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامك وكله مما نهبتم من أغنام الناس طبختموه بما قطعتم من أشجار الناس . ثم ان غازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه : اللهم إن كنت تعلم أنه إنما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وجاهد في سبيلك أن تؤيده وتنصره ، وان كان الملك والدنيا والكاثر أن تفعل به وتصنع . وقد ذكر الكتبي من شجاعة الامام أنه شكا اليه انسان من قطلوبك الكبير وظلمه له وكان فيه جبروت وأخذ أموال الناس واغتصابها — وحكاياته في ذلك مشهورة — فدخل عليه الشيخ وتكلم معه فقال له قطلوبك : أنا كنت أريد أن أجيء إليك لأنك عالم زاهد . يعني يستهزئ به ، فقال له : موسى كان خيراً مني وفرعون كان شراً منك ، وكان موسى يجيء إلى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات ويعرض عليه الايمان .

ومن مساعيه المشكورة في خدمة أبناء الملل السماوية سعيه في إطلاق أسرى المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء ، وإصراره على ذلك ، ولم يرض باطلاق أسارى المسلمين فقط ؛ وإنما فعل ذلك عملاً بقواعد دينه العام ، الذي يوجب المساواة في الحقوق والأحكام ، بين جميع من يظلهم سلطان الاسلام ، وإليك شذرة مما كتبه في الرسالة القبرصية خطاباً لسرجوان ملك قبرص ، قال(١) :

ونحن قوم نحب الخير لكل أحد ، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة ، فان أعظم ماعبد الله به نصيحة خلقه ، وبذلك بعث الله

(١) (ص ١٢) والرسالة مطبوعة بمطبعة المؤيد بمصر سنة ١٣١٩ هجرية .

الأنبياء والمرسلين ، ولا نصيحة أعظم من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه ، فانه لابد للعبد من لقاء الله ، ولا بد أن الله يحاسب عبده كما قال تعالى : « فلنسألنّ الذين أرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين » (إلى أن قال) :

وقد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى ، وأطلقهم غازان وقطلوشاه ، وخاطبت مولاي فيهم فسمح باطلاق المسلمين قال لي : لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس ، فهؤلاء لايطلقون ، فقلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا فانا نفتكهم ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة ، وأطلقنا من النصارى من شاء الله . فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله .

وكذلك السبي الذي بين أيدينا من النصارى يعلم كل أحد احساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم كما أوصانا خاتم النبيين اهـ .

ومن شجاعته ما حكاه في الكواكب قال : لما وشوا به إلى السلطان الاعظم الملك الناصر لدين الله وأحضره بين يديه قال من جملة كلامه انني أخبرت أنك قد أطاعك الناس ، وان في نفسك أخذ الملك ، فلم يكترث به ، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت ، وصوت عال سمعه كثير ممن حضر : أنا أفعل ذلك ؟ والله إن ملكك وملك المغل لا يساوي عندي فلساً . فتبسم السلطان لذلك ، وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة : إنك والله لصادق وان الذي وشى بك اليّ لكاذب ، واستقر له في قلبه من المحبة الدينية مالولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل من كثرة ما يلقى إليه في حقه من أقاويل الزور والبهتان ، ممن ظاهر حاله العدالة ، وباطنه مشحون بالفسق والجهالة .

* * *

محن ابن تيمية ونبذة من عقيدته الحموية

قال العلامة الشيخ مرعي في الكواكب (١) : قلّ من يسلم من أهل الفضل والدين في هذه الدنيا بلا محنة وابتلاء وخوض فيه ، لأنه لم يداهن الناس ويصانعهم ، ولذا قال صديقه على حدّ قوله : (ما ترك الحقّ من صديق لعمر) وقال سفيان الثوري : إذا رأيت الرجل يثني عليه جيرانه فاعلم أنه مداهن .

(قال) وما وقع من المحنة للأئمة كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والبخاري مشهور كما بينته في كتابنا تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين (ثم قال) هذا وشيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ امتحن بمحن ، وخاض فيه أقوام ، ونسبوه للبدع والتجسيم ، وهو من ذلك بريء . فأول محنة كما نقله الثقات في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة بسبب عقيدته الحموية الكبرى ، وهي جواب سؤال ورد من حماة فوضعها ما بين الظهر والعصر في ست كراريس بقطع نصف البلدي ، فجرى له بسبب تأليفها أمور ومحن لترجيحه مذهب السلف على مذهب المتكلمين وتشنيعه عليهم (فمن بعض قوله في مقدمتها) ما قاله الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وفي غيره . ومن المحال أن يكون خير أمة وأفضل قرونها قصروا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه ، ثم من المحال أيضاً أن تكون القرون الفاضلة قرن الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين . قال : ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الايمان بألفاظ

(١) ص ١٦٧ من « المجموع المطبوع » .

القرآن والحديث من غير فقه لذلك ، بمنزلة الأميين . وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات .

وقال : فهذا الظن الفاسد أوجبه اعتقاد أنهم كانوا أميين بمنزلة الصالحين من العامة لم يتحروا في حقائق العلم بالله ، ولم يتفطنوا لدقيق العلم الالهي ، وان الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله كيف يكون هؤلاء المتأخرون لا سيما والاشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين الذين كثر في باب الدين اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة الله حجابهم ، وأخبر الواقف على نهاية إقدامهم ، بما انتهى إليه من مرامهم ، يقول الامام فخر الدين الرازي :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيَّرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائرٍ على ذَقَنٍ أو قارعاً سنَّ نادم

وأقروا على أنفسهم بما قالوه متمثلين به ومنشئين له فيما صنفوه من كتبهم ، مثل قول بعض رؤسائهم :

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ويقول آخر منهم : لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً . ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الاثبات : إليه يصعد الكلم الطيب : الرحمن على العرش استوى ، واقرأ في النفي : ليس كمثله شيء ، ولا يحيطون به علماً ، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي . ويقول الآخر منهم : لقد خضت البحر الخضم ، وتركت أهل الاسلام وعلومهم ، وخضت في الذي نهوني عنه ، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان وها أنا (ذا) أموت على عقيدة أمي اهـ .

مناظرته رحمه الله

كان شيخ الاسلام يرجح في أمر المعتقد مذهب السلف الصالح ويعض عليه بالنواجذ ، ويحاول إرجاع الناس إليه بكل الوسائل ، ويرى رأي إمام دار الهجرة مالك بن أنس من أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، وهو رأيُ كل حكيم عليم بداء الأمة ودوائها قديماً وحديثاً . وكان شديد الانتصار لمذهب السلف والدفاع عنه بالحجج العقلية والنقلية ، وقد عقدت له مناظرات في مصر والشام ؛ كان معظمها يحوم حول هذه القضية ؛ وقد كان سئل أن يكتب المناظرات الثلاث التي جرت له في الشام فكتبها . وإني أنقل منها المناظرة الثانية من كتاب (غاية الأماني) للعلامة أبي المعالي السلامي لتكون مثالاً من مناظراته قال : أما بعد فقد سئلت غير مرة أن أكتب ما حضرني ذكره مما جرى في المجالس الثلاثة المعقودة المناظرة في أمر الاعتقاد بمقتضى ما ورد من كتاب ذي السلطان من الديار المصرية إلى نائبه أمير البلاد ، لمَّا سعى إليه قوم من الجهمية والاتحادية والرافضة وغيرهم من ذوي الأحقاد ، فأمر الأمير بجمع القضاة الأربعة قضاة المذاهب الأربعة ، وغيرهم من نوابهم والمفتين والمشايخ ممن له حرمة وبه اعتداد ، وهم لا يدرون ما قصد بجمعهم في هذا الميعاد ، وذلك يوم الاثنين ثامن رجب المبارك عام خمس وسبعمائة . فقال لي : هذا المجلس عُقد لك ، فقد ورد مرسوم من السلطان بأن أسألك عن اعتقادك ، وعما كتبت به إلى الديار المصرية من الكتب التي تدعو بها الناس إلى الاعتقاد ، وأظنه قال : وأن أجمع القضاة والفقهاء يتباحثون في ذلك . فقلت : أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني ولا عن من هو أكبر مني ، بل يؤخذ عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وما أجمع عليه سلف الأمة ، فما كان في القرآن وجب اعتقاده ، وكذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة

مثل صحيح البخاري ومسلم . وأما الكتب فما كتبت إلى أحد ابتداء أدعو به إلى شيء من ذلك ، ولكني كتبت أجوبة أجبت بها من سألني من أهل الديار المصرية وغيرهم ، وكان قد بلغني أنه زوّر عليّ كتاب إلى الأمير ركن الدين الجاشنكير أستاذ ذي السلطان يتضمن ذكر عقيدة محرفة ولم أعلم بحقيقته لكن علمت أنه مكذوب .

وكان يرد عليّ من مصر وغيرها من يسألني عن مسائل في الاعتقاد فأجيبه بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة ، فقال : نريد أن تكتب لنا عقيدتك فقلت : اكتبوا ، فأمر الشيخ كمال الدين أن يكتب فكتب له جمل الاعتقاد في أبواب الصفات والقدر ومسائل الايمان والوعيد والامامة والتفضيل . وهو أن اعتقاد أهل السنة والجماعة الايمان بما وصف الله به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدا وإليه يعود ، والايمان بأن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه أمر بالطاعة وأحبها ورضيها ، ونهى عن المعصية وكرهها ، والعبد فاعل حقيقة ، والله خالق فعله ، وان الايمان والدين قول ، وعمل ، يزيد وينقص ، وأن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بالذنوب ، ولا نخلد في النار من أهل الايمان أحداً ، وأن الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي (ثم قلت) للأمير والحاضرين : أنا أعلم أن أقواماً يكذبون عليّ كما قد كذبوا غير مرة ؛ وإن أمليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون : كتم بعضه أو داهن أو دارى ، فأنا أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين قبل أن يجيء التتر إلى الشام ، وقلت قبل حضورها كلاماً قد بعُد عهدي به وغضبت غضباً شديداً لكني أذكر أني قلت أنا أعلم أن أقواماً كذبوا علي وقالوا للسلطان شيئاً وتكلمت بكلام احتجت إليه . مثل أن

قلت من قام بالاسلام أوقات الحاجة غيري ؟ ومن الذي أوضح دلائله وبينه وجاهد أعداءه واقامه لما مال ، حين تخلى عنه كل أحد ، ولا أحد ينطق بحجته ، ولا أحد يجاهد عنه ، وقمت مظهراً الحجة ، مجاهداً عنه مرغماً فيه ، فاذا (كان) هؤلاء يطمعون في الكلام فيّ فكيف يصنعون بغيري ، ولو أن يهودياً طلب من السلطان الانصاف لوجب عليه أن ينصفه ، وأنا قد أعفو عن حقي وقد لا أعفو بل أطلب الانصاف منه وان يحضر هؤلاء الذين يكذبون ليكافأوا على افترائهم ، وقلت كلاماً أطول من هذا الجنس لكن بعد عهدي به .

فأشار الأمير الى كاتب الدرج محيي الدين أن يكتب في ذلك وقلت أيضاً : كل من خالفني في شيء مما كتبته فانا أعلم بمذهبه منه : ثم قرئت العقيدة في الجلسة فاعترض بعضهم على مسائل منها ، فاجاب الشيخ عنها . وكتبت هذه المناظرة الاولى نحو ثمان صفحات ، ثم قال شيخ الاسلام :

فصل

فلما كان المجلس الثاني يوم الجمعة في اثني عشر رجب ، وقد أحضروا أكبر شيوخهم ممن لم يكن حاضراً ذلك المجلس ، وأحضروا معهم زيادة : (صفي الدين الهندي) وقالوا : هذا أفضل الجماعة وشيخهم في علم الكلام ، وبحثوا فيما بينهم ، واتفقوا وتعاطوا وحضروا بقوة واستعداد للمخاطب الذي هو المسؤول والمجيب والمناظر ؛ فلما اجتمعنا وقد أحضرت ما كتبته من الجواب عن أسئلتهم المتقدمة الذي طلبوا تأخيره إلى اليوم حمدت الله بخطبة الحاجة خطبة ابن مسعود (رضي الله عنه) (ثم قلت) إن الله تعالى أمرنا بالجماعة والائتلاف ونهانا عن الفرقة والاختلاف وقال لنا في القرآن : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » (وقال) : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » وقال : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات » ربنا واحد ، وكتابنا واحد ، ونبينا واحد ، وأصول

الدين لا تحتمل التفرق والاختلاف ، وأنا أقول مايوجب الجماعة بين المسلمين ، وهو متفق عليه بين السلف ، فان وافق الجماعة فالحمد لله ، وإلا فمن خالفني بعد ذلك كشفت الاسرار ، وهتكت الأستار ، وبينت المذاهب الفاسدة التي أفسدت الملل والدول وأنا أذهب إلى سلطان الوقت على البريد ، وأعرفه من الأمور مالا أقوله في هذا المجلس فان للسلم كلاماً ، وللحرب كلاماً ، (وقلت) : لاشك ان الناس يتنازعون ، يقول هذا أنا حنبلي ، ويقول هذا أنا أشعري ، ويجري بينهم تفرق وفتن واختلاف على أمور لا يعرفون حقيقتها ، وأنا قد أحضرت مايبيّن اتفاق المذاهب فيما ذكرته ، وأحضرت كتاب تبيين كذب المفتري[1] . فيما ينسب الى الشيخ أبي الحسن الأشعري تأليف الحافظ أبي القاسم بن عساكر (رحمه الله) (وقلت) لم يصنف في أخبار الأشعري المحمودة كتاب مثل هذا وقد ذكر فيه لفظه الذي ذكره في كتابه « الابانة » فلما انتهيت الى ذكر المعتزلة سأل الأمير عن معنى المعتزلة . فقلت : كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق الملي وهو أوّل اختلاف حدث في الملة : هل هو كافر أو مؤمن فقالت الخوارج إنه كافر ، وقالت الجماعة إنه مؤمن ، وقالت طائفة نقول هو فاسق لا مؤمن ولا كافر ، نزله منزلة بين المنزلتين وخلدوه في النار ، واعتزلوا حلقة الحسن البصري وأصحابه (رحمه الله تعالى) فسموا معتزلة (وقال الشيخ الكبير) بحيته وردائه : ليس كما قلت ، ولكن أول مسألة اختلف فيها المسلمون مسألة الكلام وسمي المتكلمون متكلمين لأجل تكلمهم في ذلك ، وكان أول من قالها عمرو بن عبيد ، ثم خلف بعد موته عطاء بن واصل ، وبعد أن ردّ الامام عليه خطأه قال (قلت) الناس اختلفوا في مسألة الكلام في خلافة المأمون وبعدها في أواخر المائة الثانية ، (وأما المعتزلة) فقد كانوا قبل ذلك بكثير من زمن عمرو بن عبيد بعد موت

(١) عني بنشره القدسي بدمشق سنة ١٣٤٧ هـ .

الحسن البصري في أوائل المائة الثانية . ولم يكن أولئك قد تكلموا في مسألة الكلام ولا تنازعوا فيها ؛ وانما أول بدعتهم تكلمهم في مسائل الأسماء والأحكام والوعيد (فقال هذا ذكره الشهرستاني في الملل والنحل فقلت : الشهرستاني ذكره في اسم المتكلمين لم يسمّوا متكلمين ، لم يذكره في اسم المعتزلة ، والأمير إنما سأل عن اسم المعتزلة ؛ وأنكر الحاضرون عليه ، وقالوا غلطت ، وقلت في ضمن كلام : أنا أعلم كل بدعة حدثت في الاسلام وأول من ابتدعها وما كان سبب ابتداعها ؛ وأيضاً فما ذكره الشهرستاني ليس بصحيح في اسم المتكلمين . فان المتكلمين كانوا يسمّون بهذا الاسم قبل منازعتهم في مسألة الكلام ، وكانوا يقولون عن واصل بن عطاء انه متكلم ويصفونه بالكلام ولم يكن الناس اختلفوا في مسألة الكلام وقلت أنا وغيري انما هو واصل بن عطاء أي لاعطاء بن واصل كما ذكره المعترض (قلت) : وواصل لم يكن بعد موت عمرو بن عبيد وانما كان قرينه وقد روى أن واصلاً تكلم مرة بكلام ، فقال عمرو بن عبيد : لو بعث نبياً ما كان يتكلم بأحسن من هذا ، وفصاحته مشهورة حتى قيل إنه ألثغ وكان يحترز عن الراء حتى قيل له أمر الأمير أن يحفر بئر فقال أوعز القائد أن يقلب قليب .

ولما انتهى الكلام إلى ما قاله الأشعري قال الشيخ المقدم فهم لاريب أن الامام أحمد إمام عظيم القدر من أكبر أئمة الاسلام لكن قد انتسب إليه أناس ابتدعوا أشياء (فقلت) أما هذا فحق ، وليس هذا من خصائص أحمد بل مامن إمام إلا وقد انتسب إليه أقوام هو منهم بريء وقد انتسب إلى مالك أناس مالك بريء منهم ، وانتسب إلى الشافعي أناس هو بريء منهم ، وانتسب إلى أبي حنيفة أناس هو بريء منهم ، وقد انتسب إلى موسى عليه السلام أناس هو بريء منهم ، وانتسب إلى عيسى (عليه السلام) أناس هو منهم بريء ، وقد انتسب الى علي بن أبي طالب أناس هو بريء منهم ، ونبينا ﷺ قد انتسب إليه من القرامطة والباطنية وغيرهم من أصناف

الملحدة والمنافقين من هو بريء منهم (قال) وذكر في كلامه أنه انتسب إلى أحمد من الحشوية والمشبهة ونحو هذا الكلام (فقلت) المشبهة والمجسمة في غير أصحاب الامام أحمد أكثر منهم فيهم : وبعد أن عدّ أصنافهم من غير الحنابلة (قال) وتكلمت عن لفظ الحشوية ما أدري جواباً عن سؤال الأمير أو غيره أو غير جواب . فقلت هذا اللفظ أول من ابتدعه المعتزلة فانهم يسمون الجماعة والسواد الأعظم (الحشو) (قال) وحشو الناس هم عموم الناس وجمهورهم . وهم غير الأعيان المتميزين يقولون هذا من حشو الناس كما يقال هذا من جمهورهم . وأول من تكلم بهذا عمرو بن عبيد قال أي عمرو وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه حشوياً .

(وقلت) لا أدري في المجلس الأول أو الثاني : أول من قال ان الله جسم هشام بن الحكم الرافضي (قلت) لهذا الشيخ : من في أصحاب الامام أحمد حشوي بالمعنى الذي تريده : الأثرم ، أبو داود ، المروزي ، الخلال ، أبو بكر ، عبد العزيز ، أبو الحسن التميمي ، ابن حامد ، القاضي ابو يعلى ، أبو الخطاب ، ابن عقيل ، ورفعت صوتي وقلت سمهم قل لي من هم ؟ من هم ؟ ؟ أيكذب ابن الخطيب وافتراءه على الناس في مذاهبهم تبطل الشريعة وتندرس معالم الدين ، كما نقل هو وغيره عنهم انهم يقولون إن القرآن القديم هو أصوات القارئين ومداد الكاتبين وان الصوت والمداد قديم أزلي ؟

من قال هذا ؟ وفي أي كتاب وجد هذا عنهم ؟ قل لي ، وكما نقل عنهم ان الله لا يُرى في الآخرة باللزوم الذي ادعاه والمقدمة التي نقلها . وأخذت أذكر ما يستحقه هذا الشيخ من أنه كبير الجماعة وشيخهم وأن فيه من العقل والدين ما يستحق أن يعامل بموجبه ، وأمرت بقراءة العقيدة جميعها عليه فانه لم يكن حاضراً في المجلس الأول وإنما أحضروه في الثاني انتصاراً . وحدثني الثقة عنه بعد خروجه من المجلس انه اجتمع به وقال له أخبرني عن هذا المجلس ، فقال : مالفلان ذنب ولا لي : فان الأمير

سأل عن شيء فأجابه عنه . فظننته سأل عن شيء آخر . وقال قلت أنتم مالكم على الرجل اعتراض فانه نصر ترك التأويل ، وأنتم تنصرون قول التأويل وهما قولان للأشعري . وقال : أنا أختار قول ترك التأويل وأخرج وصيته التي أوصى بها : وفيها : قولي ترك التأويل (قال الحاكي له) فقلت له بلغني عنك أنك قلت في آخر المجلس لما أشهد الجماعة على أنفسهم بالموافقة : لا تكتبوا عني نفياً ولا اثباتاً فلم ذاك ؟ قال : لوجهين (أحدهما) اني لم أحضر قراءة جميع العقيدة في المجلس الأول . والثاني لأن أصحابي طلبوني لينتصروا بي فما كان يليق أن أظهر مخالفتهم فسكت عن الطائفتين اهـ باختصار قليل .

اعتقال شيخ الاسلام في مصر والشام وسببه

نقل صاحب الكواكب الدرية عن الشيخ علم الدين أنه في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨ وقع بدمشق محنة للشيخ الامام تقي الدين بن تيمية . وكان الشروع فيها من أول الشهر ، وكان سببها ترجيحه مذهب السلف في الصفات على مذهب المتكلمين ، وكان قبل ذلك بقليل أنكر أمر المنجمين ، ثم عقدت له عدة مجالس المناظرة في مصر والشام ، وحبس في القطرين ، وقد ذكرنا في الفصل السابق احدى تلك المناظرات . ونقل صاحب جلاء العينين عن الحافظ ابن كثير قال وأكثر ماتألموا منه (أي أعداؤه) الحبس مع أنه لا ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام ، ولم يتوجه لهم عليه مايشين وانما أخذوه وحبسوه بالجاه ، كما سيأتي اهـ .

قيل ومن جملة أسباب حبسه خوفهم أنه ربما يدعي ويطلب الامارة فلقي أعداؤه عليه طريقاً من ذلك ، فحسنوا للأمراء حبسه لسد تلك المسالك اهـ .

صار في معتقله ، ووفاته في قلعة دمشق

ذكر صاحب الكواكب الدرية : أن الشيخ لما سجن في مصر بحبس القضاة بحارة الديلم صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيراً من كثير من

الزوايا والربط والخوانق والمدارس . وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الاقامة عنده . وكثر المترددون اليه حتى صار السجن يمتلىء منهم .

ولما ورد أمر بسجنه بقلعة دمشق أظهر السرور بذلك وقال إني كنت منتظراً ذلك وهذا فيه خير عظيم . ونقل عنه وارث علومه العلامة ابن قيم الجوزية الذي حبس بقلعة دمشق معه في كتابه (الكلم الطيب والعمل الصالح) انه قال : مايصنع أعدائي بي ، أنا جنتي وبستاني في صدري أين رحت فهي معي لاتفارقني . أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة ؛ وكان يقول في مجلسه في القلعة : لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ماعدل عندي شكر هذه النعمة ، أو قال ماجزيتهم على ماتسبّبوا إليّ فيه من الخير ونحو هذا . وكان يقول في سجوده وهو محبوس : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ماشاء الله وقال لي مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه . والمأسور من أسره هواه . ولما أدخل ووصل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال : « فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط . مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها . ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والارجاف . وهو مع ذلك أطيب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدراً ، وأقواهم قلباً ، وأسرّهم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه ؛ وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون ، وضاقت بنا الأرض ، أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله ، فينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة . فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبوابها في دار العمل ، فاتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ماستفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها ، وكان بعض العارفين يقول . لو علم الملوك وأبناء الملوك مانحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف اه وكان دخوله قلعة دمشق سادس شعبان ٧٢٦ وما زال مقيماً في قاعتها إلى أن كانت وفاته ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ .

الاحتفال بالصلاة على شيخ الاسلام ورفعه

دخلت جنازة الامام جامع بني أمية ، وصلي عليه عقب صلاة الظهر ولم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه إلا حضر لذلك حتى غلقت الأسواق بدمشق ، وعطلت معايشها حينئذ ، وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم . وخرج الامراء والرؤساء والعلماء والفقهاء ، والأتراك والأجناد ، والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام ، قال بعض من حضر ولم يتخلف فيما أعلم إلا ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم بحيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس .

واتفق جماعة ممن حضر وشاهد الناس والمصلين عليه انهم يزيدون على نحو من خمسمائة ألف وحضرها نساء كثير بحيث حزرن بخمسة عشر الفاً . قال أهل التاريخ لم يسمع بجنازة تمثل هذا الجمع إلا جنازة الامام أحمد ابن حنبل . قال الدار قطني : سمعت أبا سهل بن زياد القطان يقول : سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول سمعت أبي يقول : قولوا لأهل البدع : بيننا وبينكم الجنائز . قال أبو عبد الرحمن السلمي أنه حزر الحزارون المصلين على جنازة أحمد ، فبلغ العدد بحزرهم الف الف وسبعمائة الف سوى الذين كانوا في السفن . ثم حملت جنازة الشيخ إلى قبره في مقبرة الصوفية فوضع . وقد جاء الملك شمس الدين الوزير ولم يكن حاضراً قبل ذلك فصلى عليه أيضاً ومن معه من الامراء والكبراء ومن شاء الله من الناس . ثم دفن وقت العصر إلى جانب أخيه الشيخ جمال الاسلام شرف الدين . انتهى من الكواكب باختصار .

* * *

خلاصة أعماله رحمه الله

تنقل عن فوات الوفيات[1]، خلاصة أعماله التي طار بها ذكره في البلاد، وهو قد نقلها من كتاب (تذكرة الحفاظ) للحافظ ابن عبد الهادي. وقد آثرت نقلها لتكون فهرساً لأعمال شيخ الاسلام من سنة ٦٩٨ الى سنة ٧٢٨ وهي سنة وفاته.

قال ابن عبد الهادي قلت: أملى شيخنا المسألة المعروفة بالحموية سنة ٩٨ في قعدة بين الظهر والعصر وهو جواب سؤال ورد من حماة في الصفات، وجرى له بسبب ذلك محنة، ونصره الله وأذل أعداءه، وما حصل له بعد ذلك إلى حين وفاته من الأمور والمحن والتنقلات يحتاج الى عدة مجلدات، وذلك كقيامه في نوبة غازان سنة ٦٩٩ وقيامه باعباء الأمر بنفسه، واجتماعه هو بنائبه قطلوشاه وبولاي، واقدامه وجرأته على المغول، وعظيم جهاده، وفعله الخير، من انفاق الأموال، واطعام الطعام، ودفن الموتى؛ ثم توجه بعد ذلك بعام إلى الديار المصرية، وسوقه على البريد اليها في جمعة لما قدم التتار إلى أطراف البلاد، واشتد الأمر بالبلاد الشامية. واجتماعه باركان الدولة واستصراخه بهم، وحضهم على الجهاد، واخباره لهم بما أعد الله للمجاهدين من الثواب، وابدائهم له العذر في رجوعهم، وتعظيمهم له، وتردد الاعيان إلى زيارته، واجتماع ابن دقيق العيد به، وسماعه كلامه، وثنائه عليه الثناء العظيم. ثم توجه بعد أيام الى دمشق واشتغاله بالاهتمام لجهاد التتار، وتحريض الامراء على ذلك الى ورود الخبر بانصرافهم، وقيامه في وقعة شقحب المشهورة سنة ٧٠٢ واجتماعه بالخليفة والسلطان وأرباب الحل والعقد وأعيان الامراء، وتحريضه لهم على الجهاد وموعظته لهم، وما ظهر في هذه الوقعة من كراماته وإجابة دعائه وعظيم جهاده،

(١) (ج ١ ص ٤٠) طبع مصر سنة ١٢٩٩ هـ.

وقوة إيمانه وشدة نصحه للاسلام، وفرط شجاعته؛ ثم توجه بعد ذلك في آخر سنة أربع لقتال الكسروانيين وجهادهم واستئصال شأفتهم، ثم مناظرته للمخالفين سنة (٥) في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم وظهوره عليهم بالحجة والبيان، ورجوعهم الى قوله طائعين ومكرهين، ثم توجه بعد ذلك في السنة المذكورة الى الديار المصرية في صحبة قاضي الشافعية، وعقد له مجلس حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة، ثم حبسه بالجب بقلعة الجبل ومعه أخواه سنة ونصفاً، ثم خروجه بعد ذلك وعقد مجلس له لخصومتهم، وظهوره عليهم، ثم اقرائه للعلم وبثه ونشره؛ ثم عقد مجلس له في شهر شوال سنة (٧) لكلامه في الاتحادية وطعنه (عليهم)، ثم الأمر بتسفيره الى الشام على البريد؛ ثم الأمر بردّه من مرحلة وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفاً، وتعليمه أهل الحبس ما يحتاجون إليه من أمور الدين، ثم اخراجه منه وتوجهه إلى الاسكندرية وجعله في برج حبس فيه ثمانية أشهر يدخل إليه من شاء، ثم توجه إلى مصر واجتماعه بالسلطان في مجلس حفل فيه القضاة وأعيان الامراء واكرامه له اكراماً عظيماً، ومشاورته له في قتل بعض اعدائه وامتناع الشيخ من ذلك، وجعله كلّ من آذاه في حلّ، ثم سكناه بالقاهرة وعوده إلى نشر العلوم ونفع الخلق، وما جرى بعد ذلك من قضية البكري وغيرها، ثم توجه بعد ذلك الى الشام صحبة الجيش المنصور قاصداً العراق بعد غيبته عن دمشق سبع سنين وسبع جمع، وتوجهه في طريقه إلى بيت المقدس، ثم ملازمته بعد ذلك بدمشق لنشر العلوم وتصنيف الكتب وإفناء الخلق، إلى أن تكلم في مسألة الحلف بالطلاق فأشار عليه بعض القضاة بترك الافتاء بها في سنه ثمان عشرة، فقبل إشارته، ثم ورد كتاب السلطان بعد أيام بالمنع من الفتوى فيها؛ ثم عاد الشيخ إلى الافتاء بها وقال لا يسعني كتمان العلم، وبقي كذلك مدة إلى أن حبسوه بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً، ثم أخرج ورجع الى عادته من الاشتغال والتعليم؛ ولم يزل كذلك إلى أن ظفروا له بجواب

يتعلق بمسألة شد الرحال الى قبور الأنبياء والصالحين كان قد أجاب به من نحو عشرين سنة فشنعوا عليه بسبب ذلك ، وكبرت القضية وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين بحبسه في القلعة ، فأخليت له قاعة حسنة وأجري إليها الماء وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه ، وأقبل في هذه المدة على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب والرد على المخالفين ، وكتب على تفسير القرآن العظيم جملة كبيرة تشتمل على نفائس جليلة ، ونكت دقيقة ، ومعان لطيفة ، وأوضح مواضع كثيرة التبست على خلق من المفسرين ، وكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة ، وظهر بعض ما كتبه واشتهر ، وآل الأمر إلى أن منع من الكتابة والمطالعة ، وأخرجوا ماعنده من الكتب ، ولم يتركوا دواة ولا قلماً ولا ورقة ، وكتب عقيب ذلك بفحم يقول : إن اخراج الكتب من عنده من أعظم النقم ، وبقي أشهراً على ذلك ، وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين .

بعض تلاميذ شيخ الاسلام الأعلام

ذكر صاحب جلاء العينين تراجم طائفة من تلاميذ شيخ الاسلام الأعلام ، الذين كانوا من بعده من أشهر رجال الاسلام ، بما خلفوا من الآثار ، التي طار ذكرها في الأمصار ، وانتفع بها أبناء الأعصار (فمنهم) أشهر تلاميذه ، ووارث علومه ، العالم الرباني شيخ الاسلام الثاني ، شمس الدين محمد بن قيم الجوزية ، صاحب الآثار الكثيرة المحررة ، الذي حبس مع الشيخ في قلعة دمشق ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ . وقد قال عنه القاضي برهان الدين الزرعي : ماتحت أديم السماء أوسع علماً منه .

(ومنهم) الامام الحافظ مؤرخ الاسلام شمس الدين أبو عبد الله محمد الذهبي صاحب ميزان الاعتدال في نقد الرجال وغيره . وقال عنه العلامة الشيخ تاج الدين السبكي في طبقاته الكبرى : كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها ، ثم اخذ يخبر عنها اخبار من حضرها .

(ومنهم) الحافظ الكبير ، عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير البصري ثم الدمشقي ، قال عنه ابن حبيب : انتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير ، ومن تصانيفه التاريخ المسمى البداية والنهاية . وطبقات الشافعية وغيرها .

(ومنهم) الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي ؛ عده الذهبي في طبقات الحفاظ ، وقد عدّ له ابن رجب في طبقاته ما يزيد على سبعين مصنفاً وتوفي وعمره أربعون سنة أو أقل .

(ومنهم) قاضي القضاة شرف الدين أبو العباس أحمد بن الحسين المشهور بقاضي الجبل . قرأ على الشيخ تقي الدين بن تيمية ـ عدة تصنيفات في علوم شتى ، وأذن له في الافتاء في شبيبته قال الذهبي فيه : هو مفتي الفرق ، سيف المناظرين ؛ وبالغ ابن رافع وابن حبيب في مدحه ، وله اختيارات في المذهب ومن شعره اللطيف قوله :

الصالحية جنة والصالحون بها أقاموا
فعلى الديار وأهلها مني التحية والسلام

(ومنهم) زين الدين عمر الشهير بابن الوردي . له تصانيف في النحو والأدب والتصوف والتاريخ . وقد أطنب في ترجمة شيخ الاسلام في تاريخه . ومن نظمه :

سبحان من سخر لي حاسدي يحدث لي في غيبتي ذكرا
لا أكره الغيبة من حاسد يفيدني الشهرة والأجرا

(ومنهم) زين الدين أبو حفص عمر الحراني . ولي نيابة الحكم وقال لم أقض قضية إلا وأعددت لها الجواب بين يدي الله تعالى .

(ومنهم) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح : قال أبو البقا السبكي : ما رأت عيناي أفقه منه . وقال ابن القيم : ماتحت قبة الفلك أعلم بمذهب الامام أحمد من ابن مفلح . وقال ابن كثير : وله مصنفات كثيرة منها على المقنع نحو ثلاثين مجلداً وعلى المنتقى وكتاب الفروع أربع مجلدات . وله كتاب في أصول الفقه والآداب الشرعية الكبرى والوسطى والصغرى .

أبيات من مراثيه

لقد نظم في رثاء الامام المترجم وذكر أعماله ومآثره قصائد غرّ ، وذكر طائفة منها صاحب الكواكب . وقد اخترنا أبياتاً منها نذكرها انموذجاً لما قال فيه ، بعض واصفيه : قال ابن فضل الله العمري من قصيدة طويلة :

مثل ابن تيمية رضى حواسده ... بحبسه ولكم في حبسه غدروا
مثل ابن تيمية في السجن معتقل ... والسجن كالغمدوهو الصارم الذكر
مثل ابن تيمية تذوي خمائله ... وليس يلقط من أفنانه الزهر
مثل ابن تيمية شمس تغيب سدى ... وما ترق بها الآصال والبكر
مثل ابن تيمية يمضي وما عبقت ... بمسكه العاطر الأردان والطرر

ومنها في حساده ومناوئيه :

هل فيهم صادع للحق مقوله ... أو خائض للوغى والحرب تستعر
رمى إلى نحو غزان مواجهة ... سهامه من دعاء عونه القدر
بل راهط والأعداء قد غلبوا ... على الشآم وطال الشرّ والشرر
وشقّ في المرج والأسياف مصلتة ... طوائفاً كلها أو بعضها تتر
هذا وأعداؤه في الدار أشجعهم ... مثل النساء بظل الباب مستتر

ومن قصيدة لابن الوردي :

تقي الدين ذو ورع وعلم ... خروق المعضلات به تخاط
توفي وهو مسجون فريد ... وليس له إلى الدنيا انبساط
ولو حضروه حين قضى لألفوا ... ملائكة النعيم به أحاطوا
قضى نحباً وليس له قرين ... ولا لنظيره لف القماط

ثم قال :

فيالله ما قد ضم لحد ... ويالله ما غطى البلاط

هم حسدوه لما لم ينالوا ... مناقبه فقد مكروا وشاطوا
وكانوا عن طريقته كسالى ... ولكن في أذاه لهم نشاط
وحبس الدرّ في الأصداف فخر ... وعند الشيخ بالسجن اغتباط
بآل الهاشمي له اقتداء ... فقد ذاقوا المنون ولم يواطوا

إلى أن قال :

ألم يأتك فيكم رجل رشيد ... يرى سجن الامام فيستشاط
إمام لا ولاية كان يرجو ... ولا وقف عليه ولا رباط
ولا جاراكم في كسب مال ... ولم يعهد له بكم اختلاط
ففيم سجنتموه وغظتموه ... أما لجزا أذيته اشتراط
وسجن الشيخ لا يرضاه مثلي ... ففيه لقدر مثلكم انحطاط
أما والله لولا كتم سري ... وخوف الشر لانحلّ الرباط
وكنت أقول ماعندي ولكن ... لأهل العلم ماحسن اشتطاط
فما أحد إلى الانصاف يدعو ... وكل في هواه له انخراط
سيظهر قصدكم يا حابسيه ... ويهنيكم إذا نصب الصراط
فها هو مات عنكم واسترحتم ... فماطوا ما أردتم أن تماطوا
وحلّوا واعقدوا من غير ردّ ... عليكم وانطوى ذاك البساط

ومن قصيدة للشيخ محمد العراقي الجزري :

ياطليق اللسان في كل فن ... فلقد شرفت بك العلياء
إن تكن مت فالعلوم التي أحييت من بعد موتها أحياء

ومنها :

أنت صخر الوجود في كل أرض ... والبرايا جميعها كالحنساء

ومنها :

قسماً بالاله لو أنصف الدهر لأضحى في كل بيت عزاء

ومن قصيدة زين الدين عمر بن الحسام الشبيلي رحمه الله :

سل عنه غازانا وسل أمراءه لما أتوا بطلائع الاسراء
والمغل قد ملكوا البلاد وأهلها كم قدّ من عات بغير عناء

وللفاضل برهان الدين ولد شهاب الدين التبريزي الحنفي :

فمن جاهد الأعداء في الدين مثله ومن سلّ سيف العزم في وجه غازان

ومنها :

وما ضره إن طال في السجن مكثه إذا كان في نسك وطاعة رحمن

هذا قليل من كثير من مواهب هذا الامام الكبير وأعماله . ومن وصف الأئمة له ، وشذرات من مراثيه .

* * *

علاوة على المحاضرة

دفع فرية عن ابن تيمية

بحث تاريخي علمي

لقد صدق كثير من العلماء والادباء في مختلف العصور هذه الرواية الآتية في رحلة ابن بطوطة الشهير ، وجعلوها قضية مسلمة يروونها ويتوارثونها إلى عصرنا هذا ، حتى أن دائرة المعارف الاسلامية التي تنقل الآن إلى العربية في مصر ، قد ترجمت لابن تيمية ترجمة بقلم الاستاذ محمد بن شنب (ص ١٠٩ — ١١٦ ج ١) فيها أغلاط كثيرة ، ونقلت عبارة ابن بطوطة هذه ، وهي قوله عن إمام الشام وشيخ الاسلام ابن تيمية « وكنت اذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة ، وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم ، فكان من جملة كلامه أن قال : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا ، ونزل درجة من درج المنبر » فرأيت أن أنشر كلمة في هذا الموضوع تكون الحد الفاصل بين الحق والباطل .

١ — إن ابن بطوطة رحمه الله لم يسمع من ابن تيمية ولم يجتمع به ، إذ كان وصوله إلى دمشق يوم الخميس التاسع عشر من شهر رمضان المبارك عام ستة وعشرين وسبعمائة هجرية ، وكان سجن شيخ الاسلام في قلعة دمشق أوائل شهر شعبان من ذلك العام ، ولبث فيه إلى أن توفاه الله تعالى ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة عام ثمانية وعشرين وسبعمائة هجرية ، فكيف رآه ابن بطوطة يعظ على منبر الجامع وسمعه يقول : ينزل . . . . الخ .

٢ — إن رحلة ابن بطوطة مملوءة بالروايات والحكايات الغريبة ، ومنها مالا يصح عقلاً ولا نقلاً وهو يلقي ما ينقله على عواهنه ، ولا يتعقبه بشيء . فمن ذلك قوله : (١ : ٥٤) وفي وسط المسجد (أي الأموي بدمشق) قبر زكريا عليه السلام ، والمعروف أنه قبر يحيى عليه السلام ، وقوله أيضاً : وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري أن الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة ، وهذا لا يقال من قِبَل الرأي ، وسفيان أجل من أن يفضله على مسجد رسول الله (ﷺ) وعلى المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين وهما لم يبلغ الثواب فيهما هذه الدرجة ، كما هو معلوم للمحدثين وغيرهم ، ومن نقوله التي أقرها ولم ينكرها (١ ، ١٩٩ ، ١٣٣ ، ١٣٦) النذور للقبور المعظمة ، والوقوف على أبواب الملوك ، ومن ذلك النذر لأبي اسحق ، اذا هاجت الرياح في البحار ، واشتدت الاخطار ، وهو مالم يبلغه اهل الجاهلية الذين قال الله تعالى عنهم « فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » .

٣ — لم يكن ابن تيمية يعظ الناس على منبر الجامع كما زعم ابن بطوطة (١ : ٥٧) (فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ على منبر الجامع) بل لم يكن يخطب أو يعظ على منبر الجمعة كما يوهمه قوله : « ونزل درجة من درج المنبر . وإنما كان يجلس على كرسي يعظ الناس ، ويكون المجلس غاصاً بأهله ، قال الحافظ الذهبي : وقد اشتهر أمره ، وبعد صيته في العالم ، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه ، فكان يورد المجلس

ولا يتلعثم ، وكان يورد الدرس بتؤدة وصوت جهوري فصيح ، وقال : وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره أيام الجمع » .

وقال علم الدين البرزالي في معجم شيوخه : « وكان يجلس في صبيحة كل جمعة يفسر القرآن العظيم ، فانتفع بمجلسه وبركة دعائه ، وطهارة أنفاسه وصدق نيته ، وصفاء ظاهره وباطنه ، وموافقة قوله لعمله ، وأناب إلى الله تعالى خلق كثير وإنما كان يخطب الناس على منبر الجامع الأموي في عهد دخول الرحالة ابن بطوطة دمشق ، قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ، وقد كان خطيب المسجد ، وإمام الشافعية فيه ، وكان سكناه بدار الخطابة (ج ١ ص ٥٦ رحلة ابن بطوطة) .

ومما تقدم يعلم أن ابن تيمية كان مدرساً وواعظاً ، لا خطيباً ، وكان يلقي درسه في التفسير صبيحة كل جمعة ، وهو جالس على كرسي في الجامع الأموي لا واقف على منبر فينزل درجة عنه ، وقد أشار إلى ذلك الحافظ المؤرخ ابن عبد الهادي بقوله : ثم ان الشيخ جلس يوم الجمعة (أي بدمشق) على عادته ، وقال وهو يصف حاله وأعماله بمصر : ويتكلم في الجوامع على المنابر من بعد صلاة الجمعة إلى العصر ، فهو لم يقل على منابر الجمعة ، ولا على منابر الخطابة ، والظاهر أن المراد بالمنبر كل ما ارتفع عن الأرض كما يؤخذ من مفهومه اللغوي ، فهو يعم هذه الكراسي التي يجلس عليها المدرسون في المساجد الكبرى بمصر والشام والعراق ليسمع منها الجماهير ، فكيف غفل ابن بطوطة عن ذلك ؟

٤ — انك لا تجد في جميع ما تراه من كتبه المخطوطة والمطبوعة غير تفسير مسهب لمثل قوله الذي نقله عنه الشيخ ابن ناصر الدين الشافعي في الرد الوافر : « ومذهب السلف والأئمة الاربعة وغيرهم : إثبات بلا تشبيه ، وتنزيه بلا تعطيل ، وليس لأحد أن يضع عقيدة ولا عبارة من عند نفسه ، بل عليه أن يتبع ولا يبتدع ، ويقتدي ولا يبتدي » ولمثل ما فسر به كلامه السيد صفي الدين الحنفي البخاري في القول الجلي بقوله : « قلت : — وتفسير

كلامه أنه يجب الايمان بجميع المتشابهات الواردة في الكتاب والسنة كاليد والوجه والاستواء والنزول ، على وجه يليق به تعالى ، فلا يكيف بشيء منها ، ولا يمثل بصفات المخلوقين كما هو مذهب السلف ومن تبعهم من الخلف ، فلا يقال يد كيدنا ، ولا وجه كوجهنا ، أو استواء كاستوائنا ، أو نزول كنزولنا ، بل يداه صفته بلا كيف ، وكذا وجهه ، وهكذا فقس سائر الصفات والأفعال » وأقول : هذه عقيدته الحموية والواسطية والاصفهانية التي عقدت له المناظرات حولها في مصر والشام ، بل هذه أيضاً كتبه ورسائله وفتاويه وردوده في العقائد قد بسط الكلام فيها على آيات الصفات والأفعال وأحاديثها كالوجه واليدين والاستواء والنزول وغيرها بالمعقول والمنقول ، وكلها يتضمن اثبات الاسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات ، إثباتاً بلا تشبيه ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما قال تعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » وقوله : « ليس كمثله شيء » رد للتشبيه والتمثيل ، وقوله : « وهو السميع البصير » دفع الالحاد والتعطيل .

٥ — إن طريقة شيخ الاسلام في اثبات الأسماء والصفات ، وفي بيان منشأ غلط المعطلة والنفاة ، واضحة في جميع كتبه ، وخلاصتها أن لهذه الصفات وجوداً علمياً ذهنياً ، ووجوداً خارجياً عينياً ، فوجودها الذهني ، هو العلمي المطلق المجرد عن جميع الخصائص والاضافات كالحياة والعلم والقدرة ، والسمع والبصر والكلام ، وكون الموصوف حياً عالماً قديراً ، سميعاً بصيراً متكلماً ، وهذا القدر مشترك بين الموجودات كافة ، يطلق عليها بالاشتراك الاسمي أو اللفظي ، كما هو ثابت لها في الوجود العلمي والذهني ، ولكن شيئاً من ذلك لا يقتضي المشاركة في الأعيان الخارجية ، بل الذهن يأخذ معنى مشتركاً بين المسميين ، وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق من المخلوق ، والمخلوق من الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق ، وما دل عليه بالاضافة والاختصاص المانعين من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى .

٦ — بيّن شيخ الاسلام (رحمه الله تعالى) في الرسالة التدمرية وغيرها أن نفاة الصفات يقعون في كثير من الأوهام والمحاذير (منها) ظنهم أن مدلول النصوص هو التمثيل (ومنها) أنهم بنوا على ظنهم السيء تعطيل ما أودع الله ورسوله في كلامهما من معاني الالهية اللائقة بجلال الله تعالى. (ومنها) أنهم نفوا عن الله تعالى تلك الصفات بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. (ومنها) أنهم وصفوا الرب تعالى بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات، أو صفات المنقوصات والمعدومات، فهم يجمعون في كلام الله وفي الله بين التعطيل والتمثيل، وهذا من الالحاد في أسماء الله وآياته.

٧ — يظهر من كلام الحافظ ابن حجر، أن الشيخ نصراً المنبجي الذي كان مقدماً في الدولة هو الذي أشاع مسألة النزول عن الدرج، بسبب كتاب ورده من الامام ابن تيمية ينكر عليه فيه أقوالاً في وحدة الوجود، ويعدّها عليه، قال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة (١: ١٥٤): «وكتب إليه كتاباً طويلاً، ونسبه وأصحابه إلى الاتحاد الذي هو حقيقة الالحاد، فعظم ذلك عليهم، وأعانه عليه قوم آخرون، ضبطوا عليه كلمات في العقائد مغيرة، وقعت منه في مواعيده (مواعظه) وفتاويه، فذكروا أنه ذكر حديث النزول، فنزل عن المنبر درجتين (كذا) فقال: كنزولي هذا، فنسب إلى التجسيم.

وأقول: قد عرفت المراد من لفظ المنبر، حتى ان الحافظ ابن حجر قال: «وكان يتكلم على المنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث، فيورد في ساعة من الكتاب والسنة، واللغة والنظر، مالا يقدر أحد على أن يورده في عدة مجالس، كأن هذه العلوم بين عينيه» (ص ١٥٣ ج١) من الدرر. وهذا مما يؤكد أنه كان يلقي درسه على كرسي يجلس عليه، والمستمعون حوله، فكلامه على طريقة المفسرين — من بعد صلاة الجمعة إلى العصر، وإيراده من الآيات والأحاديث ونصوص اللغة، وأقوال العلماء،

في مجلس واحد مالا يورده غيره في مجالس كثيرة كما تقدم، هو طريقة المدرسين المحققين في حلقات المجالس الكبرى لاخطباء المنابر وهم وقوف، لاسيما وقد صرحوا بجلوسه في دروسه، ولا يتيسر على منابر الخطب الجمعية.

ثم انظر الى قوله في خصومه: ضبطوا عليه كلمات في العقائد مغيرة، فاذا كانت مغيرة فما ذنبه هو حتى يؤخذ بها أو تؤخذ عليه؟ «ولا تزر وازرة وزر أخرى» والحافظ ابن حجر هو ناقل غير قائل، وفي قوله: «عقائد مغيرة» ما يثبت أنه لا يعتدّ بما قالوه، بل لا يعبأ بما افتري به عليه، كيف وقد نقل أقوال الأئمة الثقات فيه، وهم قد نزهوه عن تلك المفتريات؟ ومن أراد استيفاء البحث فليراجع مجموعة الرد الوافر، أو الرسالة التدمرية لشيخ الاسلام، أو ملحق الجزء الرابع من فتاويه، أو العقود الدرية للحافظ ابن عبد الهادي، ليبلغ حد اليقين في نفي مطاعن الطاعنين.

٨ — إن العلوم الحديثة قربت فهم النصوص على طريقة السلف، وبينت أنها الأعلم والأحكم، بلّة كونها الأهدى والأسلم، فمن ذلك حديث النزول الذي أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا .... الخ» فقد أورد في كتاب (دفع شبه التشبيه) قول القاضي أبي يعلى: «النزول صفة ذاتية، ولا نقول: نزوله انتقال» وقال ابن الجوزي: «وهذا مغالط» قلت: ليس بمغالط فقد ظهر في عصرنا ما يؤيد قوله، فان صوت المذياع الآن يسمع في كل مكان كما يسمع في مكانه، وهذا الاختراع الحديث يقرب لنا فهم ما أورده البخاري في صحيحه، من أن الله ينادي عباده بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، ومثله: إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صوته .. الخ، بل الآلة التي تريك المتكلم الآن حاضراً عندك وهو لم يبرح مكانه (Télévision) تهدينا إلى فهم النزول إلى سماء الدنيا بلا انتقال، وان هذا النزول هو صفة ذات لا صفة فعل، كما قال القاضي أبو يعلى، ومثله اسناد صفة الكلام إليه تعالى في قوله: «وكلم الله موسى تكليماً» وقول رسوله: «إذا تكلم الله بالوحي» فوصفه بما وصف به نفسه حقيقي غير مجازي وهو لا يحتاج الى تأويل بله

التعطيل ، فراراً من شبهة التشبيه ، فان تشبيه من ليس كمثله شيء ، بالمخلوق المتكلم بفم ولسان ، غير وارد من أصله فقد أنطق العلم الحديث الآن الجمادات فنطقت بغير فم ولسان ، كالمذياع والحاكي ، أفتأبى قدرة الله وحكمته إلا أن يتكلم بفم ولسان كالانسان ؟ أليس هو القادر على أن يختم على فم الانسان وينطق جسمه الصامت كما أخبر بعدة آيات ؟ منها قوله سبحانه « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم » الآية . أفيعقل أن يكون هذا القادر الحكيم عاجزاً عن التكلم إلا بفم المخلوق ؟ وجملة القول : إن هذه الرواية مختلقة على ابن تيمية سواء صحت عن ابن بطوطة أم لم تصح ، فهو لم يره ولم يسمع منه ، ومؤلفاته جميعها ترد عنه هذه الكلمة الشاذة ، بل لو ثبتت الرؤية والسماع ، لصح أن نقول : إن ابن بطوطة شبه له ابن تيمية كما شبه عزق النخلة في القصة التي حكاها ابن بطوطة في سبب تسمية الشيخ رسلان بالباز الأشهب (ج ١ : ٥٩) وقد كنت دخلت على شاب من معارفي ، فقلت له : ما أشبهك بفلان ، قال : فلان ما أعرفه ، ولكني أعرف شاباً آخر لولا تحققي من وجودي المستقل عنه لظننته إياه ، وحكايات الشبه والاشتباه في الاشخاص والاشياء لا تكاد تحصر ، وهي داخلة في باب تحقيق الشخصية (Identification) من كتب الطب الشرعي وغيره .

على أن ابن بطوطة لم يكتب رحلته بقلمه ، وانما أملاها على ابن جزي الكلبي ، وقال هذا في المقدمة : « ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمعاني التي اعتمدها » . فيجوز أن يكون ذلك من تحريف النساخ ، أو وسوسة بعض الخصوم ، والله تعالى أعلم (١) .

---

(١) لشيخ الاسلام كتاباً مستقلاً في (شرح حديث النزول) (طبع بمصر سنة ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨ م ص ٢٣٠) وقد حقق فيه أن هذا النزول هو صفة ذات لا صفة فعل ، ونقل فيه روايات عن أئمة السنة كحماد بن زيد ، واسحق بن راهويه ، بأنه تعالى في مكانه يقرب من خلقه كيف شاء .

قلت : الكتاب كله يؤيد هذا المعنى ، ويبعد عن شيخ الاسلام ضلالة تشبيه الله بخلقه ، ويهدينا الى فهم النزول الى سماء الدنيا بلا انتقال .

عودة ثانية

في اختيارات شيخ الاسلام

اشتهر شيخ الاسلام ابن تيمية بمسائل أثرت عنه ، وظن كثير من الناس أنه انفرد بها عن غيره ، بل ظنوا أنه خالف في بعضها الاجماع ؛ وهي أمور اجتهادية يقع في مثلها الخلاف بين العلماء . ومن المفروغ منه أن ابن تيمية قد بلغ رتبة الاجتهاد في الاحكام الشرعية ، وأنه كان يفتي الناس بما أدى إليه اجتهاده ، وانه موافق في فتاواه بعض الصحابة أو التابعين أو أحد أئمة المذاهب الاربعة أو غيرهم ، ممن عاصرهم أو جاء قبلهم أو بعدهم ؛ وقد قال العلامة برهان الدين ابن الامام محمد المعروف بابن قيم الجوزية : لا نعرف مسألة خرق فيها الاجماع ، ومن ادعى ذلك فهو إما جاهل وإما كاذب ، ولكن مانسب اليه الانفراد به ينقسم الى أربعة أقسام ، (الأول) : مايستغرب جداً فينسب إليه أنه خالف فيه الاجماع ، لندور القائل به وخفائه على الناس ، لحكاية بعضهم الاجماع على خلافه . (الثاني) ماهو خارج عن مذاهب الأئمة الأربعة ، وقال به بعض الصحابة أو التابعين أو السلف ، والخلاف فيه محكي . (الثالث) ما اشتهرت نسبته اليه مما هو خارج عن مذهب الامام رضي الله عنه ، لكن قد قال به غيره من الأئمة وأتباعهم . (الرابع) ما أفتى به واختاره مما هو خلاف المشهور في مذهب أحمد ، وإن كان محكياً عنه وعن بعض أصحابه .

وقد ذكر برهان الدين اختيارات شيخ الاسلام في هذه الأقسام الأربعة ، فالقسم الأول عدّ منه في الطلاق عشر مسائل ، وعدّ منه في غير الطلاق ، تسعاً وعشرين مسألة . ومن مسائل القسم الثاني سبع عشرة مسألة . ومن الثالث ست عشرة ، ومن الرابع ستاً وعشرين . وتجد هذه المسائل في مجموع يشتمل على رسالتين (الأولى) : في مذهب الامام داود الظاهري ، جمعها الاستاذ الشيخ محمد الشطي (والثانية) : في مسائل شيخ

الاسلام ابن تيمية ، جمع العلامة برهان الدين المتقدم . وفي الكواكب الدرية (من مجموع الردّ الوافر المطبوع بمصر ١٣٢٩) شذرة من هذه الاختيارات ومعها ذكر من اختارها من أئمة السلف (من ص ١٨٤) .

وأم هذه الأقوال التي اشتدّ فيها النزاع ، وادعى خصوم الشيخ أنه خرق بها الاجماع ، ثلاث مسائل فيما نراه : الطلاق ، والوسيلة ، وشد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة المفضّلة حرم مكة ، والمدينة ، والمسجد الأقصى ؛ ولنا في هذه القضايا الثلاث كلمات ثلاث أختم بها هذه العلاوة .

(قضية الطلاق)

الطلاق في الاسلام لا يكون إلاّ عن ضرورة وبصيرة ، وذلك بأن يكون الزوجان قانعين بان لاسبيل لبقائها على الحياة الزوجية ، لموانع جسمية أو نفسية ، خلقيه أو خلقية ، تجعل صفو العيش كدراً ، وتعرّض النسل للمهانة والشقاء ، فالفراق في هذه الحال نعمة لا نقمة ، والزوجان سعيدان به لا شقيان ، « وإن يتفرقا يُغن الله كلاً من سَعته » وآية ذلك أن يكون الزوج في حال الطلاق عاقلاً مختاراً ، وأن تكون الزوجة راضية مطمئنة ، فيمتعها متاعاً حسناً ويفارقها باحسان . أما اذا لم يكن موجب للفراق ، فليس له أن يضارها بالطلاق ، وعليه أن يذكر قول العليم الحكيم : « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » فهذا ضمان وأمان لها من الله تعالى طول حياتها عنده ، مادامت قائمة بواجبها . أما طلاق الغضبان والسكران ، والطلاق من أجل قضية أجنبية لا علاقة للزوجة بها ، فهو طلاق الظالمين لانفسهم ولازواجهم ، وسيأتي حكمه .

وقد ذكر شيخنا القاسمي رحمه الله آداب التطليق المستنبطة من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة ، في رسالته التي سماها « الاستئناس لتصحيح أنكحة الناس » فعدّ منها عشرة آداب (الأول) هو رعاية المصلحة في ايقاعه ، بعد التروي والتحاكم . (الثاني) : إيقاعه في حال الخوف من عدم

إقامة حدود الله . (الثالث) : أن لايكون القصد بايقاع الطلاق مضارّة الزوجة . (الرابع) : أن يطلق لداع لا يتأتى معه اتخاذها زوجة . (الخامس) : أن لا يطلق ثلاثاً دفعة واحدة . (السادس) : أن يشهد على الطلاق . (السابع) : أن لا يكون في حالة الغضب . (الثامن) : أن ينوي الطلاق ، « إنما الاعمال بالنيات » . (التاسع) : أن يكون التطليق مأذوناً فيه من جهة الشارع . (العاشر) : التطليق باحسان ، لا باساءة ولا بفحش من الكلام ، ولا بغي ولا عدوان » .

هذه الجمل القصيرة كالعناوين لهذه الآداب العشرة التي شرحها استاذنا في رسالته ، ثم قال : فأمر تعالى المطلقين إذا طلقوا الطلاق المأذون فيه — وهو المستوفي شروطه — أن يسرحوا نساءهم راضيات عنهم ، داعيات لهم ، ذاكرات لجميلهم ومعروفهم وإحسانهم ؛ وذلك بأن يحسنوا إليهن بما يتمتعن به على قدر اليسر والعسر ، وأكد ذلك أيضاً بقوله : « متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين » فجعل ذلك حقاً لازماً على الذين يحسنون الى أنفسهم في المسارعة إلى طاعة الله فيما ألزمهم به ، وادائهم ما كلفهم من فرائضه ، ويحسنون إلى المطلقات بالتمتيع على الوجه الذي يحسن في الشرع والمروءة ، وختم البحث بهذه الكلمة الواعظة : تالله إن القلب يتفطر ألماً ، والعين تدمع دماً ، على ما أصبحوا فيه من الجهل ، ولا من سائق لهم إلى الفقه والعلم ، حتى أصبحت محاكم القضاة تياراً لأمواج شكاية المظلومات ، وميداناً لجولان دعاوي الزوجات ، (و) حتى صار المسلمون يبتئيهم في الطلاق وهضم حقوق الأزواج عاراً على الاسلام ، وفتنة لسواهم من الأقوام ، « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ، واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الرحيم » .

الطلاق عند الأجانب

أما الطلاق في أوربا وأميركا فالظاهر أنه لا يكون إلا لأسباب تقع

بين الزوجين خاصة ، ولكنهم يطلقون لأهون الأسباب وأيسرها ، كقص الشعر ، وحلق اللحية ، ولباس الشهرة ونحو ذلك ، ولذلك كثر عندهم كثرة هائلة ، وهو طلاق باعثه السآمة والملل ، وحب التنقل ، وله عواقب وخيمة ، ومنها ضياع النسل . وقد نشرت جريدة الأهرام (أول سنة ١٣٥٤ هـ وسنة ١٩٣٥ م) اعتقاداً للقاضي لندسي أشهر قضاة الطلاق في لوس انجلوس في ولاية (كليفورنية) خلاصته أن الحياة الزوجية ستزول من بلادهم (أميركا الشمالية) وتحل محلها الاباحة والفوضى في العلاقة مابين النساء والرجال في زمن قريب ؛ وهي الآن كشركة تجارية ينقضها الشريكان لأوهى الاسباب خلافاً لهداية جميع الأديان ، إذ لا دين ولا حب يربطها ، بل الشهوات والتنقل في وسائل المسرات اهـ .

ومن غريب الاتفاق إني قرأت في صحيفة دمشقية صدرت يوم (١٣٧١/٧/٢٢ و ١٩٥٢/٤/١٦) كلمة عن الطلاق عند الاميركيين وأسبابه ، يتبين منها أن نزول الفتاة الاميركية — فتاةً ومتزوجة — إلى ميدان العمل الخارجي هو الذي أثارها على طبيعتها وشريعتها ، ودعاها إلى كراهية البيوت والأزواج والأولاد !!! فقد « زادت نسبة النساء العاملات في السنوات الأخيرة بمقدار (٥٠) في المئة ، في حين أن الرجال لم يزيدوا الا بمقدار (٢٠) في المئة . ومما يدل على أن المرأة الأميركية تفوق جميع نساء العالم نفوذاً انتشار الطلاق في أميركا ، والمشاهد أنه كلما قوي نفوذ المرأة كثر الطلاق ، لأن قدرة المرأة على الاستقلال بنفسها استقلالاً مادياً وأدبياً يهون عليها أمر الفراق عن زوجها ، ولهذا نجد أن نسبة الطلاق في أميركا ثمانية أمثالها في بريطانيا ، كما نجد أن (٧٠) في المئة من حالات الطلاق تقع بناءً على طلب الزوجات لا على طلب الأزواج . وقلما تجد الآن فتاة أميركية ترضى أن تكون ربة بيت فقط ، بل كل فتاة تريد أن تعمل وأن تكسب كالشباب ، وبعد الزواج ترفض المرأة أن تبقى في بيتها !! »

قلت : سبب هذا الانحلال الخلقي ، والتدهور الاجتماعي هو تخلي الرجال

عن النساء ، بل دفعهن في تيار العمل ، واللهو خارج المنزل ، فاختل نظام البيوت ، وتقوضت دعائم الأسرة ، وهذا هو الذي يقلدهم فيه من بلاد الشرق عبيد الشهوات ، حتى تتعطل الحياة المنزلية ، وتقفر البيوت من أهلها :

إذا لم تكن في منزل المرء حرّة مدبّرة ضاعت مصالح داره

الطلاق في الاسلام

وبعد فلشيخ الاسلام في الطلاق الشرعي والبدعي كلام يطول ، ولشرحه في كتب ابن القيم حواشٍ وذيول ، وحسبنا أن نشير إلى مراجعه فهي مطبوعة متداولة ، وفيها من حقائق التنزيل والتأويل ، ما يضمن سلامة الأسر ، بل سعادة البشر ، لو رعوا هذه النصوص حق رعايتها ، ولم يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وكتب الشيخين قد أشبعت هذا الموضوع بحثاً واستدلالاً ، ولم تدع للمبتدعة فيه شبهةً ولا مقالاً ، بل أوردت جميع مقالاتهم وأتت عليها نقضاً وإبطالاً . وإنك لتجد هذه المباحث السابغة والحجج البالغة ، في الجزأين الثالث والرابع من فتاوى شيخ الاسلام ، والاغاثتين الكبرى والصغرى لتلميذه ابن القيم ، وله أيضاً سبح طويل في كتابه « زاد المعاد » وفي تهذيبه « لسنن أبي داود » وإليك نبذاً قصيرةً منها كلها :

قال شيخ الاسلام في فتاويه[1] : إن الأصل بقاء النكاح ، ولا يقوم دليل شرعي على زواله بالطلاق المحرّم ، بل النصوص والأصول تقتضي خلاف ذلك ، ولو غلّظ الايمان التي شرع الله فيها الكفّارة بما غلّظ ، ولو قصد أن لا يحنث فيها بحال ، فذلك لايغير شرع الله ، وأيمان الحالفين ، لا تغيّر شرع الدين .

وقال ص ٣١ : « والمرأة إذا أبغضت الرجل كان لها أن تفتدي نفسها

(١) ج ٣/٢٧ طبع مصر .

منه وهذا الخلع تبين به المرأة ، فلا يحل له أن يتزوجها بعد إلا برضاها ، وليس هو كالطلاق المجرد . . . إنّ الخلع هو الفرقة بعوض ، فمتى فارقها بعوض فهي مفتدية لنفسها به ، وهو خالع لها بأي لفظ كان . . . . وذلك أن الاعتبار بمقاصد العقود وحقائقها لا باللفظ وحده ، فما كان خلعاً فهو خلع بأي لفظ كان ، وما كان طلاقاً فهو طلاق بأي لفظ كان ، وما كان يميناً فهو يمين ، وما كان إيلاءً فهو إيلاء ، وما كان ظهاراً فهو ظهار ، والله تعالى ذكر في كتابه الطلاق واليمين والظهار والايلاء والافتداء وهو الخلع ، وجعل لكل واحد حكماً ، فيجب أن نعرف حدود ما أنزل الله على رسوله ، وندخل في الطلاق ما كان طلاقاً ، وفي اليمين ما كان يميناً ا ه باختصار .

وفي ص ٣٣ : « إن كتاب الله بين أن الطلاق بعد الدخول لا يكون إلا رجعياً ، وليس في كتاب الله طلاق بائن إلا قبل الدخول .

ولو قال : أنتِ عليّ كظهر أمي وقصد به الطلاق ، فان هذا لا يقع به الطلاق عند عامة العلماء ، وفي ذلك أنزل الله القرآن فانهم كانوا يعدّون الظهار طلاقاً ، والايلاء طلاقاً ، فرفع الله ذلك كله ، وجعل في الظهار الكفارة الكبرى(١) وجعل الايلاء يميناً يتربّص فيها الرجل أربعة أشهر ، فاما أن يمسك بمعروف أو يسرّح باحسان ، وكل يمين يحلف عليها المسلمون من أيمانهم ففيها كفارة يمين(٢) ، كما دل عليه الكتاب والسنة .

وفي ص ٢٤٦ من « زاد المعاد » : وأجمع المسلمون على وقوع الطلاق الذي

(١) « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا . . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا ، فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكيناً » . الآيتان (٢ و ٣) من سورة المجادلة

(٢) « فكفارته إطعام عشرة مساكين من اوسط ماتطعمون اهليكم ، أو كسوتهم او تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام » .
الآية (٨٩) من سورة المائدة

أذن الله فيه وأباحه ، إذا كان من مكلف مختار ، عالم بمدلول اللفظ ، قاصد له . واختلفوا في وقوع المحرّم من ذلك . . . . ونحن نذكر المسألتين تحريراً وتقريراً ، كما ذكرناهما تصويراً .

وفيه : أن رسول الله (ﷺ) أخبر عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً ، فقام غضبان ثم قال : أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ وإسناده على شرط مسلم ا ه .

قال البخاري في صحيحه : باب الطلاق في الاغلاق والسكران والمجنون وأمرهما ، والغلط ، والنسيان في الطلاق والشك لقول النبي (ﷺ) : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » — إلى قوله : وقال عثمان : ليس لمجنون ولا سكران طلاق . وقال ابن عباس : طلاق السكران والمستكره ليس بجائز ا ه . وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : وذهب إلى عدم وقوع طلاق السكران أيضاً — كعثمان — أبو الشعثاء ، وعطاء ، وطاووس . وعكرمة والقاسم ، وعمر بن عبد العزيز ، وذكرهم ابن أبي شيبة عنهم بأسانيد صحيحة ، وبه قال ربيعة والليث واسحق والمزني ، واختاره الطحاوي .

وفي « أعلام الموقّعين ج : ٣/٣٣٢ » — بعد أن ذكر من ذهب إلى القول بعدم نفوذ طلاق السكران من الحنفية والشافعية — قال : والصحيح أنه لا عبرة بأقواله من طلاق ولا عتاق ولا بيع ولا هبة ولا وقف ولا إسلام ولا ردّة ولا إقرار ، لبضعة عشر دليلاً ، ثم فصل القول في ذلك كله تفصيلاً .

ومن « زاد المعاد(١) » : « وأما طلاق الاغلاق ، فقد قال الامام أحمد في رواية حنبل : وحديث عائشة رضي الله عنها : سمعت النبي ﷺ يقول : لا طلاق ولا عتاق في إغلاق . يعني الغضب ، قال شيخنا — يعني ابن تيمية — :

(١) ص ٢٤٤ .

وحقيقة الاغلاق أن يغلق على الرجل قلبه فلا يقصد الكلام أو لايعلم به كأنه انغلق عليه قصده وإرادته اهـ. قلت : قال أبو العباس المبرد : الغلق ضيق الصدر وقلة الصبر بحيث لا يجد له مخلصاً . (قال شيخنا) : ويدخل في ذلك طلاق المكره والمجنون ، ومن زال عقله بسكر أو غضب ، وكل من لا قصد له ولا معرفة له بما قال . اهـ.

وفي « أعلام الموقعين »[1] :

المخرج الأول : أن يكون المطلق أو الحالف زائل العقل إما بجنون أو إغماء ، أو شرب دواء ، أو وسوسة ، وهذا المخرج مجمع عليه بين الامة . اهـ باختصار قليل .

ثم قال : المخرج الخامس : أن يفعل المحلوف عليه ذاهلاً ، أو ناسياً أو مخطئاً ، أو جاهلاً ، أو مكرهاً ، أو متأولاً ، أو معتقداً أنه لا يحنث به تقليداً لمن أفتاه بذلك ، أو مغلوباً على عقله ، أو ظناً منه أن امرأته طلقت ، فيفعل المحلوفَ عليه بناء على أن المرأة أجنبية ، فلا يؤثر فعل المحلوف عليه في طلاقها شيئاً . اهـ.

وفي فتاوى شيخ الاسلام[2] : ولا يقع طلاق المكره ، والاكراه يحصل إما بالتهديد أو بأن يغلب على ظنه أنه يضره في نفسه أو ماله » . وفي ص ١٥٢ : ومن حلف بالطلاق كاذباً يعلم كذب نفسه لا تطلق زوجته ولا يلزمه كفارة يمين » .

وقال أيضاً : ومن علق الطلاق على شرط أو التزمه لا يقصد بذلك إلا الحض أو المنع فانه يجزئه فيه كفارة يمين إن حنث .

وفي ص ١١٢ ج ٤ ولو حلف بالثلاث فقال : الطلاق يلزمني ثلاثاً لأفعلن كذا ، فكان طائفة من السلف والخلف من أصحاب مالك وأحمد بن حنبل

(١) طبع مصر سنة ١٣٢٥ هـ ج ٣/٣٣١ (٢) ج ٤/١٥١ .

وداود وغيرهم يفتون بانه لا يقع به الثلاث ، لكن منهم من يوقع به واحدة ، وهذا منقول عن الصحابه والتابعين ، وغيرهم في التنجيز فضلاً عن التعليق واليمين . وهذا قول من اتبعهم على ذلك من أصحاب مالك وأحمد وداود في التنجيز والتعليق والحلف .

وفي ص ١١٦ : الثاني صيغة قسم كقوله : الطلاق يلزمني لأفعلنّ كذا ، أو لا أفعل كذا ، فهذا يمين باتفاق أهل اللغة ، واتفاق طوائف الفقهاء ، واتفاق العامة واتفاق أهل الأرض اهـ .

المطلقة

وبعد فهذه مقتطفات من قصيدة (المطلقة) للشاعر الشهير الرصافي في الانتصار لمذهب ابن القيم وشيخه عليها الرحمة والرضوان ، وقد نشرت في آخر « إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان » ومطلعها :

بدت كالشمس يحضنها الغروب ... فتاة راع نضرتها الشحوب
منزهة عن الفحشاء خود ... من الخفرات آنسة عروب

ومنها :

حليلة طيب الأعراق زالت ... به عنها وعنه بها الكروب
رعى ورعت فلم تر قط منه ... ولم ير قط منها ما يريب

ومنها :

فغاضب زوجها الخلطاء يوماً ... بأمر للخلاف به نشوب
فأقسم بالطلاق لهم يميناً ... وتلك أليّة خطأ وحُوب
وطلقها على جهل ثلاثاً — ... كذلك يجهل الرجل الغضوب
وأفتى بالطلاق طلاق بت ... ذوو فتيا تعصبهم عصيب
فبانت منه لم تأت الدنايا ... ولم يعلق بها الذام المعيب
فظلت وهي باكية تنادي ... بصوت منه ترتجف القلوب
لماذا يا نجيب صرمت حبلي ؟ ... وهل أذنبت عندك يا نجيب ؟

ومنها :

فأطرق رأسه خجلاً وأغضى ... وقال ودمع عينيه سكوب
نجيبة أقصري عني فاني ... كفاني من لظى الندم اللهيب
وما والله هجرك باختياري ... ولكن هكذا جرت الخطوب

وقد ختمها بقوله :

ألا قل في الطلاق لموقعيه ... بما في الشرع ليس له وجوب
غلوتم في ديانتكم غلواً ... يضيق ببعضه الشرع الرحيب
أراد الله تيسيراً وأنتم ... من التعسير عندكم ضروب
وقد حلت بامتكم كروب ... لكم فيهن لا لهم الذنوب
وهَى حبل الزواج ورق حتى ... يكاد إذا نفخت له يذوب
تحيط من لعاب الشمس أدات ... به في الجو هاجرة حلوب
يمزقه من الأفواه نفث ... ويقطعه من النسم الهبوب

* * *

فدى ابن القيم الفقهاء كم قد ... دعاهم للصواب فلم يجيبوا
ففي اعلامه للناس رشد ... ومزدجر لمن هو مستريب
نحا في ما أتاه طريق علم ... نحاها شيخه الحبر الأديب[1]
وبيّن حكم دين الله لكن ... من الغالين لم تعه القلوب
لعل الله يحدث بعد أمراً ... لنا فيخيب منهم من يخيب

والمقصود — كما يقول ابن القيم — أن الناس لابد لهم في باب الطلاق من أحد ثلاثة أبواب يدخلون منها (أحدها) باب العلم والاعتدال الذي بعث الله به رسوله (ﷺ) وشرعه للأمة رحمة بهم ، وإحساناً إليهم ، (والثاني) باب الآصار والأغلال الذي فيه من العسر والشدة والمشقة مافيه

(١) هو شيخ الاسلام ابن تيمية .

(والثالث) باب المكر والاحتيال الذي فيه من الخداع والتحيل والتلاعب بحدود الله تعالى ، واتخاذ آياته هزواً مافيه ، ولكل باب من المطلقين وغيرهم جزء مقسوم .

رجوع المحاكم المصرية الى الطلاق الشرعي

قال الاستاذ السيد محمد رشيد رضا في مناره : وأطال ابن القيم في تخريج أحاديث الباب والكلام عليها ، وأثبته بالكتاب والسنة واللغة والعرف وعمل أكثر الصحابة (ثم قال) :

واقترح بعض الفقهاء والعقلاء على حكومتنا المصرية الرجوع فيها إلى أصل الكتاب والسنة الذي كان أول من بسط دلائله شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم في كتبه أعلام الموقعين ، وإغاثة اللهفان وزاد المعاد ، ووافقهما وأيدهما من أعلام السنة وفقهاء الحديث بعدهما الامام الشوكاني والسيد حسن صديق ، وصاحبا شرح سنن أبي داود وحاشية سنن الدارقطني من متأخري علماء الهند الأعلام[1] .

ونقف عند هذا الحد من الكلام في يسر الاسلام وسماحته في أمر الطلاق وحماية الأسرة ورعايتها ، وان ابن تيمية لم يخط هذه الدائرة من أقواله ، بل جميع ما أتى به مؤيد بالكتاب والسنة وما كان عليه أعلام هذه الأمة .

ونختم هذا البحث بما جاء في القانون المصري للمحاكم الشرعية ، وهو المعروف بقانون (٢٥ المؤرخ ١٠ مارس سنة ١٩٢٩) تحت عنوان « الطلاق » مانصه :

١ — لا يقع طلاق السكران والمكره .

(١) ٦٨٣ ج ٩ م ٢٨ .

٢ ــ لا يقع الطلاق غير المنجز إذا قصد به الحمل على فعل شيء أو تركه ، لا غيره .

٣ ــ الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو إشارة لا يقع إلا واحدة .

٤ ــ كنايات الطلاق ــ وهي ما تحتمل الطلاق وغيره ، لا يقع بها الطلاق إلا بالنية .

٥ ــ كل طلاق يقع رجعياً إلا المكمل للثلاث . والطلاق قبل الدخول ، والطلاق على مال ، وما نص على كونه بائناً في هذا القانون ، والقانون ٢٥ لسنة ١٩٢٠ .

قلت : وهذا القانون المشار إليه سنة ١٩٢٠ هو ما اتفقت عليه اللجنة المؤلفة من حضرات شيخ الجامع الأزهر ، وشيخ المالكية ، ورئيس المحكمة العليا الشرعية ، ومفتي الديار المصرية ، ونائب السادة المالكية ، وغيرهم من العلماء .

وإنك لتجد في المذكرة الايضاحية لهذه الأحكام الخمسة بياناً وافياً عنها واحدة واحدة ، ومَن مِن أئمة السلف ، وعلماء الحديث ، وفقهاء المذاهب أخذ بها ، وهذه المقررات منطبقة تمام الانطباق على ما قدمنا من مذهب الشيخين ابن تيمية ، وابن القيم ، والله أعلم .

علاوة ثالثة

ترجيحه لمذهب السلف في أمر المعتقد

تمهيد

يظن بعض الناس أن دعاة الاصلاح والتجديد ، لأمر الدين والتوحيد ، على أساس الكتاب والسنة ، وما كان عليه سلف هذه الأمة إنما يحاولون إحياء الدين وإماتة ماعداه من علوم السلف وحضارتهم ، أو عدم الانتفاع بما تدعو إليه الحاجة من مخترعات الغربيين ومدنيتهم ، إن تعجب فعجب هذا الزعم

الباطل ! إن سلفنا الصالح الذين نهتدي بهديهم ، ونقفو أثرهم ، قد جعلهم الله هداة للناس في الدين والدنيا ، وأورثهم أرض كثير من الأمم القديمة وما عليها من علوم وآداب وصناعة وعمران ، ونحن نتلو أخبارهم ، ونقفو آثارهم ، وإن لم نبلغ شأوهم ، ونستفيد من مستحدثات الامم المعاصرة ، كما استفاد سلفنا من مزايا الشعوب والأمم الغابرة .

انا نحاول أن نكون أمة ذات مدنية عربية اسلامية ، لا شرقية ولا غربية ، أساسها الأخلاق والفضائل ، وميزانها إقامة العدل بين الخلائق ، وهذا الطراز الممتاز من المدنية نقتبسه من نور العصور الذهبية الاسلام . ولقد ذاق الناس من ظلم المدنية الحديثة ماجعل أشد الناس إيماناً بها من قبل ، أشدهم بغضاً لها ، وكراهية المستبدين الظالمين من أهلها .

ولقد كان شيخ الاسلام ابن تيمية ينصر مذهب السلف الصالح بأدلة عقلية ونقلية ، ويحاول إرجاع الناس إليه بكل الوسائل ، ويرى رأي إمام دار الهجرة مالك بن أنس من أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، وهو رأي كل حكيم عليم بداء الأمة ودوائها قديماً وحديثاً ، وقد ألف كتباً كثيرة كان معظمها يحوم حول هذه القضية ، وعقدت له عدة مناظرات في مصر والشام من أجلها ، وقد أثرنا بعضها من قبل . وله رحمه الله في باب التوحيد الخالص ، المجرد عن شوائب الوثنية والبدع والزوائد ، كتب ورسائل ، بعضها طبع وبعضها لما يطبع ، ونقتصر الآن على ذكر ثلاثة منها مطبوعة : (١) كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري ، وهو علي بن يعقوب بن جبريل البكري الشافعي المصري (٦٧٣ــ٧٢٤) وترجمته في الشذرات (ج ٦ ص ٦٤) وهو رد على مسألة الاستغاثة بالمخلوقين ، وقد لخصه ابن كثير في تاريخه . (٢) كتاب الرد على الاخنائي المسمى بقاضي القضاة علم الدين بن شمس الدين (٦٦٤ــ٧٣٢) وترجمته في الشذرات أيضاً (ج ٦ ص ١٠٣) واسمه الرد على الاخنائي واستحباب زيارة خير البرية ،

الزيارة الشرعية ، وهما مطبوعان معاً بمصر سنة ١٣٤٦ . (٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، وهو مطبوع بمصر أيضاً سنة ١٣٢٧ هـ .

وفي طلائع الكتاب الأول مباحث جليلة في مدوني التفسير والحديث والسير ، والتاريخ ، والجرح والتعديل ، وذكر طائفة من الكتب المعتمدة ؛ وبيان ما اتسع فيه الكذب من فضائل الأعمال والأشخاص والأماكن والزمان ، وما سمعه شيخ الاسلام من جهالات بعض القضاة والمفتين والمدرسين وما رآه منهم . وقد حقق فيه أن لفظ (الاستغاثة في الكتاب والسنة وكلام العرب ، إنما هو مستعمل بمعنى الطلب من المستغاث به ، وأكثر ما يقال بإغيات المستغيثين ، ومعناه المدرك عباده من الشدائد إذا دعوه ، ومريحهم ومخلصهم ، فلا يجوز للانسان الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله . (قال) : ولو كانت الاستغاثة بعد الموت ثابتة ثبوتها في الحياة لطلب من النبي (ﷺ) أن يقوم بالامامة في الصلاة ، والإمارة في الغزو ، وإرسال البعوث ، وعقد الألوية ، والشعائر في الحرب ، وإقامة الحدود ، وإيصال الحقوق ، وقسم المواريث والغنائم ، والفيء والصدقات ، وتعليمهم ما يؤمرون به مما في القلوب من المعارف والأحوال أو ما يقوم بالأبدان من الأقوال والأعمال ، وإفتائهم فيما ينوبهم من المسائل والحكم بينهم فيما يتنازعون فيه من القضايا . . . فهذه الامور التي كان مأموراً بها أمر إيجاب أو استحباب ، وكانت حقاً عليه للخلق انتهت بموته فلم يبق عليه منها شيء ، كما انتهى حق الله الذي أمره به(١) .

وأقول تأييداً لما ذكره شيخ الاسلام : ان الصحابة الكرام ، قد تناظروا بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، في أمر الخلافة ، وفي جمع القرآن ، وفي المعارك الدامية كوقعة الجمل وصفين والنهروان ؛ وتناظر الشيخان في قتال مانعي الزكاة ، وفي إرسال جيش أسامة ، ولم يستغيثوا به في هذه الشدائد ، ولا استفتوه في شيء منها ، وكل هذا معلوم من

(١) ملخصة من صفحة ٨١ ، ٩٢ و ١١٠ منه .

الدين والتاريخ بالضرورة ، ومن العقل والحس والوجدان بالبداهة ، فيجب ردّ ما يتجدد من الوقائع والحوادث إلى الوحي المنزل ، وما عرف من سنن الصدر الأول للاسلام . ولو كان ترك وسائل النصر والظفر ، والاستنصار بغيره تعالى مفيداً لنا في شيء ، لكنا اليوم أسعد الأمم حالاً ، وأنعمها بالاً ، وأوفرها عزة وثروة وقوة ، ولكن تلك الخطة المعارضة للشرع والطبع والحس التي سلكها أولئك الناس لم تزد الأمة إلا نكالاً ووبالاً ، ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخشون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذورا ﴾(١) .

ثم إن هذا المؤلف (البكري) قد جرى على عرف بعض العلماء المتأخرين الذين جعلوا الاستغاثة به (ﷺ) وبغيره في معنى التوسل إلى الله تعالى بجاهه وبحقه ، كالسبكي في شفاء السقام ، والقسطلاني في المواهب ، والسمهودي في خلاصة الوفا ، وابن حجر المكي في الجوهر المنظم وغيرهم . والمراد أنهم يسألون الله تعالى بحقه وجاهه أن تقضى حوائجهم ، وسيأتي بحث ذلك . أما الاستغاثة بأهل القبور أنفسهم بمعنى طلب الغوث منهم - أي زوال الشدة ، وتفريج الهم والكرب ، وقضاء سائر الحوائج . فهذه استغاثة شركية ، لا تدخل في دائرة الأسباب والمسببات بحال ، بل هي توسل الغلاة والجهال في الحضر والسفر ، والبر والبحر ، والعسر واليسر ، والفرج والشدة ، ونحن نجل أهل العلم والعقل والايمان ، عن الوقوع في مثل هذا الطغيان والهذيان .

وفي الكتاب الثاني لشيخ الاسلام (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة) ما ملخصه : لفظ التوسل يراد به ثلاثة معان (أحدها) التوسل بطاعته ﷺ فهذا فرض لا يتم الايمان إلا به . (والثاني) التوسل بدعائه وشفاعته ،

(١) الاسراء : (٥٦ و ٥٧) .

وهذا كان في حياته ويكون يوم القيامة . (والثالث) التوسل به بمعنى الاقسام على الله بذاته . والسؤال بذاته ، فهذا هو الذي لم يكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه ، لا في حياته ولا بعد مماته لا عند قبره ولا غير قبره ، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم ، وهذا هو الذي قال ابو حنيفة وأصحابه انه لا يجوز ، ونهوا عنه حيث قالوا : لا يسأل بمخلوق(١) اهـ .

أقول إن التوسل في لغة الصحابة هو عبارة عن أقوال وأفعال وأحوال لم تجر سنة الله في صدورها عن غير الأحياء بين أظهر الناس ، كتوسل عمر بالعباس في الاستسقاء فهو طلب للسقيا والدعاء والصلاة على طريقة معهودة في الشرع معروفة في كتب الحديث والفقه ، ومنها أن يخرج المتوسل به إلى المصلى ويخرج الناس معه ، فيستسقي ويدعو مستقبلاً القبلة ، ويحوّل رداءه ويصلي ركعتين ، ويخطب خطبتين ، أو نحوها من الهيئات الثابتة ، كما يعلم ذلك من سِيَر الأحاديث الصحيحة الواردة في الاستسقاء ، والمتوسل به للسقيا على تلك الهيئة أو نحوها لا يمكن أن يكون من غير الأحياء.

ثم ههنا مسألة مهمة وهي أن حقوق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وصلاح الصالحين ، ليست من أعمال السائل التي يستحق عليها الجزاء ، ولا رابطة بينها وبين إجابة سؤله ، فاذا قال الداعي : أسألك بحق فلان الصالح أن تقضي حاجتي فمعنى ذلك : اقض حاجتي لكون فلان صالحاً ، فأي مناسبة بين قضاء حاجتك وصلاحه ؟ وإذا قلت بجاه فلان اغفر لي ، كان المعنى : طلب المغفرة لكون فلان ذا جاه ، وأي مناسبة بين جاهه ومغفرة ذنبك ؟ فصلاحه أو جاهه ليس منفياً عنه لا في حياته ولا عند ربه ، ولا هو محل نزاع ، ولكن ليس من عملك الذي تستفيد أنت منه ، وتستحق الجزاء عليه ، وإنما العامل هو الذي يجني ثمرة عمله في الدنيا والآخرة ،

(١) ص ١٢ و ٥٣ و ٥٥ و ٥٧ و ١٧٦ منه .

قال الله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

ولو كان التوسل بعمل الصالحين يفيد المتقاعسين عن العمل لهان الأمر علينا معشر المسلمين ، إذ كان يمكننا أن نقول مثلاً : اللهم أزل ضعفنا ، وأمن خوفنا ، وانصرنا على عدونا بجاه سلفنا الصالح الذين جاهدوا في سبيلك لاعلاء كلمتك ، ففتحت لهم فتحاً مبيناً ، ونصرتهم نصراً عزيزاً ، ربنا هب لنا من الملك والسلطان ، والعلم والعرفان ، والحضارة والعمران مثل ما وهبت لهم ، أفترى أنه تفيدنا هذه التوسلات بجاه أسلافنا وقوتهم ، وسعة سلطانهم ، واستبحار عمرانهم ، ونحن قد تداعت علينا الأمم فجعلتنا مغنماً ، ونهباً مقسماً ! لا لا ، وانما ننهض ونجد اذا اهتدينا بهديهم ، وكان لنا مثل عملهم .

قال الامام ابن القيم رحمه الله : « وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة ، وحصول الشر في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع » . وقال أيضاً : وهكذا شأن التوسل الديني الأخروي . وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدَر العقوبة الأخروية بقدَر التوبة والايمان ، والأعمال الصالحة ، فرب الدارين واحد ، وحكمته واحدة ، لا يناقض بعضها بعضاً ، ولا يبطل بعضها بعضاً اهـ .

قلت : ويشهد له قوله تعالى : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » فهو توسل إلى الله تعالى بالايمان والاتباع . ومن أفضل أنواع التوسل ماجعله الله تعالى دعاء المؤمنين ، ورتب عليه غفران الذنوب ، وتكفير السيئات ، والوفاة مع الأبرار ، فقال عز من قائل : « ربنا انّنا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » وقال جلت حكمته :

« الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار » فهذه الآيات الكريمة قد أرشدتنا إلى التوسل إليه تعالى بما شرعه من الاخلاص في الدعاء له وحده ، والايمان بما أنزله من عنده ، واتباع الرسول على الوجه الذي جاء به من عند ربه ، فتأمل كيف جعل ذلك سبباً لمغفرة الذنوب ، والوقاية من النار ، والنظم في سلك الأبرار ، وأن هذا التعليم الالهي ، والتوسل الشرعي ، من المعامل التوسلية التي أنشأها المبتدعة لأنفسهم ولغيرهم ، وهم يصدرون منها كل حين من التوسلات المبتدعة أنواعاً منوعة ما أنزل الله بها من سلطان » قل أأنتم أعلم أم الله » ؟

وأما الكتاب الثالث — وهو الرد على الاخنائي — المسمى بقاضي القضاة ، فسببه أن الامام ابن تيمية قد أرسل إليه بعض أصحابه جزءاً أخبر أنه صنفه بعض القضاة ، قد تكلم في المسألة التي انتشر الكلام فيها وهي السفر إلى غير المساجد الثلاثة كالسفر إلى « مجرّد » زيارة القبور هل هو حرام أو مباح أو مستحب ، « وهي المسألة التي أجبت فيها من مدة بضع عشرة سنة بالقاهرة ، فاظهرها بعض الناس في هذا الوقت ظناً أن الذي فيها خلاف الاجماع ، وأن السفر لمجرد قبور الانبياء والصالحين هو مثل السفر المستحب بلا نزاع ، وهو السفر إلى مسجد نبينا محمد (ﷺ) المتضمن لما شرعه الله من السفر إلى مسجده والصلاة فيه ، والسلام عليه ومحبته وتعظيمه ، وغير ذلك من حقوقه (ﷺ) في مسجده المؤسس على التقوى » اهـ .

أرسل اليه بعض أصحابه هذا الجزء وأقسم عليه ليكتبن شيئاً يظهر فيه جهل مثل هؤلاء الذين يتكلمون في الدين بغير علم وليس في الفتوى القديمة التي اطلع عليها القاضي (وهي منشورة في هذا الرد) تحريم زيارة قبور الأنبياء ولا غيرهم ، ولا كان السؤال عن هذا ، وانما فيه الجواب عن السفر إلى القبور ، وكتب الشيخ وفتاويه مشحونة باستحباب الزيارة ، وفي جميع مناسكه يذكر استحباب الزيارة . قال ابن تيمية : وأما من كان

قصده السفر إلى مسجده وقبره معاً فهذا قد قصد مستحباً مشروعاً بالاجماع » ... والجواب في السؤال كان عمن سافر لا يقصد إلا زيارة القبور ، لا يقصد سفراً شرعياً كالسفر إلى مكة (أي المسجد الحرام) وإلى مسجد النبي (ﷺ) والمسجد الأقصى .

أقول : إن هذا الموضوع باقسامه الثلاثة : الزيارة ، وشد الرحال ، والتوسل ، قد شغل الناس قروناً طويلة ، وملأ مئات المصنفات وألوف الصفحات ، وكنت قدمت اقتراحاً إلى مؤتمر العالم الاسلامي الذي انعقد بمكة (١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦ م) قرّبت فيه بين المذاهب المختلفة في المسائل الثلاث ، ووافق عليه الأعضاء المؤتمرون جميعاً ، وخلاصته :

١ — إن الزيارة الشرعية للأموات من دون شد الرحال ، ليس فيها مطعن ولا مقال ، وقد كان النبي يزور سكان البقيع ، وشهداء أحد ، ثم قلت : إن هذا العصر عصر تآمر ملل ، واتفاق دول ، تخالف مصلحتها مصلحتنا معشر العرب والمسلمين ، وإن كثيراً من العوام والغلاة ، كلما أعوزهم كشف البلاء أو تحقيق الرجاء ، تركوا ما أمر الله به من إعداد القوة ، والأخذ بوسائل الدفاع ، ولجأوا إلى قبور بعض الصالحين ، يستنجدون بهم للدفاع عنهم ، وبذلك قضي على كثير من بلاد المسلمين ، فدرءاً لهذه المفاسد الدينية والدنيوية ، توضح للناس أن دعاء غير الله بكشف الضرّ ، يعدّ عبادة لذلك الغير « فلا تدعوا مع الله أحداً » وفي الحديث (إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله) فيستفاد من ذلك أن ليس في الاسلام إلا الأخذ بالأسباب المشروعة في جميع المهمات ، والاستعداد لجميع الطوارئ والحادثات بقدر الاستطاعة .

٢ — إن مسألة شد الرحال إلى المساجد الثلاثة مفروغ منها ، وإن السفر إلى ماعداها من المساجد ، أو لمجرد زيارة القبور ، لم يعهد في الصدر الأول ولم يقع من الأئمة الهداة ، وهل زيارة قبر النبي مشروعة وحدها فتشد الرحال إليها كأداة العبادة في مسجده ؟ أم هي مشروعة

تبعاً لاداء العبادة في المسجد ؟ في المسألة قولان ، ويوفق بينهما بأن الصلاة في مسجد النبي وزيارته متلازمان ، بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر ، كمسألة الفقير والمسكين والايمان والاسلام عند الفقهاء فلا يذكر أحدهما إلا ويراد معه الآخر ، وأن تكون النية موجهة عند شد الرحال إلى أداء العبادة في المسجد ، ومعها زيارته ﷺ .

٣ — ان من استقرأ النصوص ، وسبر غورها ظهر له منها أن التوسل إليه تعالى بالكلم الطيب ، والعمل الصالح هو المشروع ، وأنه هو الذي تنال به خيرات الدنيا والآخرة ، فرب الدارين واحد وحكمته فيها واحدة كما قال ابن القيم ، وفي طليعة كتابه : (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) تحقيق بديع لهذا المبحث ، وقد أورد له القواعد والشواهد الشرعية من القرآن العظيم الذي أيد العقل والحس والفطرة وطبيعة البشر في ذلك ، ولما كان بعض ظواهر النصوص يوهم شمول التوسل بالذات والجاه أيضاً ، كانت المسألة خلافية ، وكان فيها قولان لمثل الامام أحمد ابن حنبل ، وقد ورد : « اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا » رواه أحمد وابن ماجه ، وفي سنده عطية العوفي ، وهو ضعيف كما قالوا ، ولكن معناه صحيح ، فحق السائلين عليه الاجابة ، وحق الماشين إلى المساجد الاثابة ، « وقال ربكم : « ادعوني أستجب لكم » فالسائلون يسألونه تعالى تحقيق ما وعدهم به ، وقد تفضل فجعله حقاً لهم عليه ، وتحقيق وعده هو من صفاته تعالى الفعلية ، وليس ذلك من محل النزاع في شيء .

ومن المؤسف جداً عدم الاهتداء بهدي الانبياء والصالحين ، والاكتفاء بتشييد القبور ، وجعلها كالقصور والقلاع ، والصلاة عندها ، والطواف حولها ، ونذر النذور لسدنتها ، ويرحم الله حافظاً القائل :

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم ... وبألف ألف ترزق الأموات
من لي بحظ الناعمين بحجرة ... قامت على أحجارها الصلوات

والواجب يتقاضى علماء الدين الخالص والعاملين المدنية الصحيحة ، أن يتعاونوا على إنشاء معاهد علمية في الأقطار الشرقية والغربية ، تدعو إلى الله على بصيرة ، وتصحح العقائد والعوائد ، وتزيل المهالك والمفاسد ، وتعيد عهد الأئمة ، وتجدد معالم الامة .

تحقيقه لوحدة الأديان وأخوة الرسل الكرام عليهم السلام

مدخل

(الاسلام وأهل الاديان السماوية)

قرر الاسلام في معاملة الأمم التي يضمها تحت رايته حقوقاً تضمن لهم الحرية في ديانتهم ، والفسحة في إجراء أحكامها بينهم ، وإقامة شعائرها بارادة مستقلة ، فلا سبيل لأولي الأمر الى تعطيل شعيرة من شعائرهم ، ولا يدخل في فصل نوازلهم الخاصة ، إلا إن تراضوا بالمحاكمة أمام محكمتنا ، فتحكم بينهم على قاعدة العدل والمساواة ، قال تعالى : « وإنْ حكمتَ فاحكمْ بينهمْ بالقسطِ ، إنّ اللهَ يحبُّ المقسطين » . وإبقاء الرعية على شرائعهم وعوائدهم منظر من مناظر السياسة العالية ، وباب من أبواب العدالة السامية . والأصل في كل مملكة أن يكون حق الولاية الشرعية في يدها دون سواها ، بحيث تفصل المحاكم التابعة لها في جميع قضايا من تقلهم أرض الوطن ، سواء كان النزاع متعلقاً بالجرائم او الأموال ، أو الأحوال الشخصية ، ولكن عملاً بحرية الأديان والمعتقدات قيدت هذه الولاية وانحصر سلطانها في الأمور الدنيوية ، وأصبح كل إنسان حرّاً في أحواله الدينية وما يتبعها .

تنظر إلى أبواب الشريعة فتبصر في جملتها احكاماً كثيرة مبنية على التسامح مع غير المحاربين ، تطالع أبواب الهبة والوقف والوصية فتستفيد من أحكامها أن الاسلام لم يقتصر على إباحة معاملتهم بمعاوضة ، بل أجاز للمسلم

أن يهب جانباً من ماله أو يوقفه أو يوصي به لغير المسلم ؛ أمر الاسلام بالعدل والاحسان في معاملتهم ، والرفق بضعيفهم ، وسدّ خلة فقيرهم ، وحرم الاعتداء عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم .

(آيات التوحيد الخالص في الكتب السماوية)

من تصفح كتب العهدين القديم والجديد ومزامير داود (التوراة والانجيل والزبور) وجدها طافحة بالدعوة إلى توحيد الله تعالى ، والوعيد الشديد على الشرك ، مملوءة بالبشارات بظهور رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة . فأما تنزيه الاله والرب عن الوالد والولد ، وعن الند والضد ، فتراه في الفصول والأعداد ، (وهي كالسور والآيات) من أسفار التوراة ، كتثنية الاشتراع ، وسفر الخروج ، وأشعيّاء ، مثل قوله : « إن الرب هو الاله ، وليس آخر سواه » « لا يكن لك آلهة أخرى أمامي » « لا تسجد لهن ولا تعبدهن ، لأني أنا الرب إلهك إله غيور » « ولكي يعلموا من مشرق الأرض ومن مغربها أن ليس غيري ، أنا الرب وليس آخر » .

وفي إنجيل مَرْقُسَ : فأجابه يسوع : « إن أول كل الوصايا هي : اسمع ياسرائيل : الرب إلهنا رب واحد » (الفصل ١٢ عدد ٢٩) . وفي انجيل يوحنّا : « وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته » (الاصحاح ١٧/٣) .

ليس من قصدي استيفاء آيات التوحيد الخالص من الكتب المقدسة فهي كثيرة ، ولا نقل البشائر التي لا تنطبق إلا على النبي العربي محمد خاتم النبيين فقد نقل منها المحقق الكبير الشيخ رحمة الله الهندي الشهير ، في كتابه (إظهار الحق) عن الكتب المعتبرة عند علماء البروتستانت ـ ثماني عشرة بشارة ، وسبقه إلى مثل ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية الذي عقدنا هذا الفصل للكلام على كتابه الجواب الصحيح ، وتبعه فيه تلميذه الامام

ابن القيم في كتابه (إرشاد الحيارى) . وحسبي الآن أن أنقل شاهداً واحداً من التوراة ، وآخر من الانجيل ، وكلمات قليلة من الزبور أو المزامير ، تأييداً لما جاء في القرآن من بشائر الوَحدة والسلام ، والهتاف ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، لكي لا يكون على المؤمنين بالكتب المقدسة حرج إذا هم صدقوا برسالة النبي العربي الذي آمن بكتب اخوانه المرسلين وصدقهم ، ولتقوم الوطنية على أساس المساواة التامة بين أبناء الوطن الواحد ، وهذا موضوع جليل ، ومطلب خطير ، يهم أهل الملل السماوية ، وعلماء الاجتماع الانساني ، لأنه يدعو إلى الوحدة الصحيحة ، بلسان الكتب الالهية ، والعاملين بها ؛ ومن واجب العلماء بيان هذه الوحدة الدينية من الكتب المنزلة ، لتؤيد بها وحدتنا القومية .

(بشارة موسى بمحمد)

جاء في العدد الخامس عشر من الاصحاح (أو الفصل كما في الطبعة اليسوعية من سفر التثنية[1] من التوراة : « ويقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي ، له تسمعون » فهذه البشارة صريحة في محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، لأنه لم يقم نبي مثل موسى من وسط اليهود ، ومن اخوتهم بني اسماعيل غير النبي العربي محمد ، وأبناء العم يسمون أخوة ، ومن ذلك تسمية أبناء عمهم (عيسو) إخوة لهم كما في ٢ : ٤ و ٨ من التثنية ، ولو كان المراد من هذه البشارة المسيح عليه الصلاة والسلام لقال : أقيمه منكم أو من نسلكم ، لا من إخوتكم ؛ لأن يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم ، كما في متى (١١ : ١ — ١٦) فهو من نسل اسحق ، لا من نسل اسماعيل عليهم السلام .

---

(١) التثنية : اسم السفر الخامس من أسفار العهد القديم ، وقد أطلق عليه التثنية ، لأنه ذكرت فيه الشريعة الموسوية مرة ثانية .

(بشارة الانجيل بالنبي العربي)

جاء في انجيل يوحنا ١٦ : ١٢ و ١٣ إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء روح الحق ، فهو يرشدكم إلى الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع ، يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية » فمحمد هو الذي كان يتكلم بما يسمع من وحي الله اليه ، قال تعالى : ٥٣ : ٣ و ٤ « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » ومملكة محمد هي مملكة الله في الأرض المسماة في العهد الجديد بملكوت الله ، وبملكوت السموات ، وكان المسيح وتلاميذه يبشرون الناس بمجيئها ، وأمر عليه السلام أن يطلبوا إتيانها من الله في صلواتهم ، انظر متى ٣ : ٢ و ٤ : ١٧ ، ٢٣ و ٦ : ١٠ و ١٣ : ٣١ ، ٣٢ و ٢٠ : ١ — ١٦ و ٢١ : ٣٣ — ٤٤ ولوقا : ١٠ : ٩ ، ١١) وهذه المملكة هي التي بدأت صغيرة ثم نمت وكبرت حتى ملأت العالم ، ولذلك شبهها عليه السلام بالزرع الجيد وبالخميرة وبحبة الخردل ، التي تصير أكبر البقول ، حتى ان طيور السماء تأتي وتتأوى في أحضانها ، (وفي طبعة الجزويت : تستظل في أغصانها ، متى ١٣ : ٢٤ — ٣٥) وهي منطبقة على ما في القرآن الكريم في محمد وأتباعه ، « ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه » السورة ٢٩ الآية ٤٨) شطأه : أي فراخه ، يقال : أشطأ الزرع ، إذا فرّخ ، فآزره من المؤازرة ، وهي المعاونة ، أي فشدّ أزره وقواه ، فاستوى على سوقه : فاستقام على قصبه ، جمع ساق ، وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الاسلام ، والنبي عليه السلام ، قام وحده ثم قواه الله بمن آمن معه ، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتفّ به مما يتولد منها ، حتى يعجب الزراع .

* * *

(بشارة حبقوق[1] وذكر بلاد العرب فيها)

قال حبقوق (٣ : ٣ و ٤) الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبال فاران ، سلاه[2] جلاله غطى السموات ، والأرض امتلأت من تسبيحه ، وكان لمعان كالنور ، له من يده شعاع ، وهناك استتار قدرته » .

فتيمان بلاد العرب ، ومعنى كلمة تيمان الصحراء الجنوبية ، لأنها جنوب بلاد الشام ، ولا يزال الآن على طريق القوافل بين دمشق ومكة قرية تسمى (تيماء) ومعنى هذه الكلمة أيضاً الصحراء الجنوبية ، وتيماء أيضاً اسم قبيلة اسماعيلية تسلسلت من تيماء ، وكانت تقطن بلاد العرب (تك ٢٥ : ١٥ و ١١ ي ١/٣٠) كما في قاموس الكتاب المقدس العربي . أما جبل فاران فهو في البرية التي سكنها اسماعيل أبو العرب (تك ٢١/٢١) فكأن حبقوق أشار بعبارته هذه إلى مسكن رسول الله ، وهو بلاد العرب (أو التيمان) وإلى مسكن أصله ، أو جده اسماعيل ، وهو برية فاران .

(التصريح بمكة وهي مكة)

ومنه قول المزمور الرابع والثمانين (٥ و ٦) طوبى لأناس عزهم بك ، طرق بيتك في قلوبهم ، عابرين في وادي البكا ، والأصل العبراني : وادي (بكة) فأبدل لفظ (بكا) بلفظ (بكة) وهي (مكة) في نص القرآن[3] .

---

(١) نبوة حبقوق : هي السفر الخامس والثلاثون من أسفار العهد القديم حسب ترتيبها الأصلي ، وأما زمن كتابتها فقبل المسيح بنحو ستمائة سنة كما بين قاموس الكتاب المقدس .

(٢) قال بعض المحدثين : سلاه : اختلفوا في تفسيرها على أقوال ، أرجحها في رأينا — وهو ماذهب إليه اشهر المتأخرين من علماء العبرانية — انها عبارة عن الأمر بالسكوت او الوقف — إيماز للمنشدين ان يقطعوا الغناء ويتخذوا فترة تنفرد فيها الآلات بالالحن .

(٣) ضبطنا الألفاظ العبرية على اهلها ونقلنا بعض معانيها إلى العربية بالتعاون معهم .

(التصريح باسم محمد)

من ذلك ما جاء في الفصل الخامس من النشيد ١٦ حلقه حلاوة ، وكله مشتهيات ، هذا حبيبي ، (هذه ترجمة البروتستانت ، وترجمة اليسوعيين : حلقه أعذب ما يكون ، بل هو بجملته ، هذا حبيبي) .

ولفظ مشتهيات في الأصل العبراني (محمديم) والقواميس العبرانية تقول : ان هذه اللفظة لا تفيد مشتهيات ، ولكن تفيد أنه محمود ، ونقول : ان هذه صريحة في نبينا عليه السلام ، وقوله قبلها حلقه حلاوة : كناية عن فصاحة كلامه ، لم يأت نبيٌّ بكلام أحلى مما جاء به خاتم الانبياء ، وقوله بعدها هذا حبيبي نصٌّ في لقب النبي عليه الصلاة والسلام ، فانه حبيب الله عزّ وجل .

ومنه ما جاء في الفصل الثاني من النشيد : أسمعيني صوتك ، لأن صوتك لطيف ، ووجهك جميل ، وفي الأصل العبراني : (عرب) بدل (جميل) أي عربي . ومنه ما في الفصل الثاني من نبوة حجّي أو حجاي أو حكاي - كما في الأصل العبري : ٧ وازلزل كل الأمم ويأتي مشتهى كل الأمم فأملأ هذا البيت مجداً قال رب الجنود . وكلمة مشتهى هذه ، أصلها العبراني (حمدات) ومعناه محمود ، وهي من الفعل العبراني (حمد) .

علمنا من هذه النصوص والبشائر الصريحة في الكتب المقدسة أنها بشرت بالنبي العربي ، وذكرته باسمه الكريم ، وصرحت باسم بلاده ، ومحل ميلاده وهو مكة .

أفرأيتم كيف ألفت هذه النصوص الصريحة بين الأديان الثلاثة ؟ وهذا هو الاخاء الصحيح ، بين محمد وموسى والمسيح ، عليهم الصلاة والسلام ، وهذا بعض نصوصه وبشائره ، وهي قليل من كثير مما عثرنا عليه ، ولو اقتصر رجال الكنيسة الأكارم على ما بين أيديهم من الكتب

المقدسة ، - دون عقائد وعوائد ليست في هذه الأناجيل التي هي أصل العقيدة ومستندها - لاجتمعت الكلمة ، وأحكمت عرى المودة القلبية بين المختلفين.

(الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح)

يقع هذا الكتاب المطبوع بمصر (١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥) في أربعة أجزاء وهي تبلغ أكثر من ألف واربعمائة صفحة بالقطع المتوسط ، وقد ذكر شيخ الاسلام في طلائع كتابه أنه جعله جواباً لكتاب ورد من قبرص ، فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتج به علماء دينهم ، وفضلاء ملتهم قديماً وحديثاً ، من الحجج السمعية والعقلية ، فاقتضى أن تذكر من الجواب ، ما يحصل به فصل الخطاب ، (ثم قال) : وأنا أذكر ماذكروه بالفاظهم باعيانها - فصلاً فصلاً ، واتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعاً وأصلا ، وعقداً وحلا ، . . . فان هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك ، ويتناقلها علماؤهم بينهم ، والنسخ بها موجودة قديمة ، وهي مضافة إلى بولص الراهب أسقف صيدا الانطاكي كتبها إلى بعض أصدقائه ، وله مصنفات ، وقد اشتمل ردّ شيخ الاسلام على ستة فصول :

(١) دعواهم أن محمداً (ﷺ) لم يبعث إلا الى أهل الجاهلية من العرب .
(٢) دعواهم أن القرآن أثنى على دينهم الذي هم عليه .
(٣) دعوى أن نبوات الأنبياء المتقدمين تشهد لدينهم الذي هم عليه من الأقانيم والتثليث والاتحاد وغير ذلك .
(٤) فيه تقرير ذلك بالمعقول .
(٥) دعوى أنهم موحدون والاعتذار عما يقولونه من ألفاظ يظهر منها تعدّد الآلهة كألفاظ الاقانيم الخ .
(٦) أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال ، فلا حاجة بعد النهاية إلى شرع مزيد على الغاية »[1] .

(١) ص ١٩ و ٢٠ .

والغرض الأول من تأليف « الجواب الصحيح » على ما يظهر ، هو بيان أصول الشرائع السماوية والكتب المنزلة ، وانها واحدة (قال) وهذا أصل دين المسلمين ، فمن كفر بنبي واحد ، أو كتاب واحد فهو عندهم كافر ، « كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله » والمنسوخ الذي تنوعت فيه الشرائع قليل بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب والرسل ، فان الذي اتفقت عليه هو الذي لابد للخلق منه في كل زمان ومكان ، وهو الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، كما قال تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وعامة السور المكية كالأنعام والأعراف وآل حم وآل طس ، وآل الر - هي من الأصول الكلية التي اتفقت عليها شرائع المرسلين ، كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والصدق والعدل والاخلاص ، وتحريم الظلم والفواحش والشرك ، والقول على الله بلا علم . وعامة ماعندهم من النقول الصحيحة عن الأنبياء من التوراة والانجيل والزبور ونبوات الأنبياء ، توافق المنقول عن محمد (ﷺ) يشهد هذا لهذا ، وهذا لهذا ، وذلك من دلائل نبوة محمد (ﷺ) ومن دلائل نبوة أولئك الأنبياء.(١) .

(الابن وروح القدس لا اختصاص لهما بالمسيح عليه السلام)

وقد أوضح ان الابن ليس كلمة ولا صفة ، ولا هو خاص بالمسيح ، وإنما يراد به المصطفى المكرّم ، (قال)(٢) : المراد بالابن ناسوت المسيح ، وبروح القدس ما أنزل عليه من الوحي ، والملك الذي نزل به ، فيكون قد أمرهم بالايمان بالله وبرسوله ، وبما أنزله على رسوله ، والملك الذي نزل

(١) ج ٣ ص ٢٤٥ .
(٢) ج ١ ص ٢٥٠ .

به ، وبهذا أمرت الانبياء كلهم (قال)(١) : وليس في كلام المسيح ولا في كلام سائر الانبياء ولا كلام غيرهم أن كلمة الله القائمة بذاته سبحانه وتعالى تسمى ابنا ولا روح قدس ، ولا يوجد قط في كلام الانبياء اسم الابن واقعاً إلا على مخلوق ، والمراد في تلك اللغة أنه مصطفى محبوب الله ، كما يقولونه أنه قال لاسرائيل انه ابنه بكره ، ولداود انت ابني وحبيبي ، وأن المسيح قال للحواريين : أبي وأبيكم ، فجعله أباً للجميع ، وهم كلهم مخلوقون ، فيكون اسم الابن واقعاً على المسيح ، الذي هو ناسوت مخلوق قال(٢) : وفي الانجيل في غير موضع يقول المسيح : أبي وأبيكم كقوله : إني ذاهب الى أبي وأبيكم ، وإلهي وإلهكم » فيسميه أباً كما يسميهم ابناً له ، فان كان هذا صحيحاً ، فالمراد بذلك أنه الرب المربي الرحيم ، فان الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها . . . فيكون المراد بالأب الرب ، والمراد بالابن عبده المسيح الذي رباه ، وأما روح القدس فهي لفظة موجودة في غير موضع من الكتب التي عندهم وليس المراد بها حياة الله باتفاقهم ، بل روح القدس عندهم تحل في ابراهيم وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء والصالحين ، وروح القدس قد يراد بها الملك المقدس ، ويراد بها الوحي والهدى والتأييد الذي ينزله الله بواسطة الملك أو بغير واسطة .

(وفي ص ٩٦) : فالذي فسر (بعض) النصارى به ظاهر كلام المسيح ، هو تفسير لا تدل عليه لغة المسيح ، وعادته في كلامه ، ولا لغة غيره من الأنبياء والأمم ، بل المعروف في لغته وكلامه ، وكلام سائر الأنبياء تفسيره بما فسرناه ، وبذلك فسره أكابر علماء النصارى » .

(وفي ص ٣٣٢ من ج ٢) : بل أفصح في كل الانجيل من كلامه ومخاطباته ووصاياه بما لا يحصى كثرة بانه عبد مثلكم ومربوب معكم ،

(١) ج ٢ ص ٦٥ .
(٢) ج ٢ ص ٩٤ و ٩٥ .

ومرسل من عند ربه وربكم ، ومبدي ما أمر به فيكم ، وحكى مثل ذلك من أمره حواريوه وتلامذته ، ووصفوه لمن سأل عنه ، ومن كلامهم بأنه رجل جاء من عند الله عزّ وجل ، ونبي له قوة وفضل(١) .

(وفي ص ٢٤٤) : ولفظ الابن عندهم في كتبهم يراد به من رباه الله تبارك وتعالى ، فلا يطلق عندهم في كلام الانبياء لفظ (الابن) قط إلا على مخلوق محدث ، ولا يطلق إلا على الناسوت دون اللاهوت ، فلايسمى عندهم اسرائيل ابناً ، ولا داود ابناً لله والحواريون كذلك . فتبين أن العارف كلا تدبر ما قالته الانبياء وما قاله أهل البدع من ... وغيرهم لم يجد لهم في كلام الانبياء الا ما يدل على نقيض ضلالهم .

وقد بين في (ص ٣٠٦ ج ٢) : فلسفتهم في الأقانيم الثلاثة (الأب والابن وروح القدس) وأعظم فرقهم في ذلك العهد اليعقوبية والملكانية والنسطورية وقد اختلفت وجهات نظرهم واستغرقت صفحات كثيرة . وذكر القائلين منهم بالأمانة ، واختلافهم في تفسيرها وامتناع تصورها على الوجه الصحيح ، وهنا تظهر سعة علم شيخ الاسلام بالفِرَق ، واطلاعه على مقالاتها وإحاطته بفلسفتها ، وقوة عقله في إظهار تعارضها وفي ردها كلها بالمنقول والمعقول .

(التوحيد الصحيح في كلامهم)

ثم خلص إلى إفراد الله تعالى بالوحدانية والعبادة على ألسنة طوائف منهم ، (وقال) (ص ٣٠٩) : وقال الأريوسية : إن الله ليس بجسم ولا أقانيم له ، وان المسيح لم يصلب ولم يقتل ، وانه نبي ، وحكى عن بعضهم أنه قال : المسيح ليس بابن الله (أي بنوة لاهوت) وحكى عن بعضهم انه

(١) ج ٢ ص ٢٣٢ .

ابن الله على التسمية والتقريب (إلى أن قال) : وهذا الذي نقله عنهم أبو الحسن الزاغوني ، هو نحو ما نقله عنهم القاضي أبو بكر بن الطيب والقاضي أبو يعلى وغيرهما ، (قال) : وقال أبو محمد بن حزم : النصارى فرق ، منهم أصحاب أريوس ، وكان قسيساً بالاسكندرية ، ومن قوله : التوحيد المجرّد ، وان عيسى عبد مخلوق ، وأنه كلمة الله التي بها خلق السموات والأرض (أي وهي كلمة « كن ») وكان في زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية ، وأول من تنصر من ملوك الروم ، وكان على مذهب أريوس هذا . (قال ابن حزم) : ومنهم أصحاب بولس الشمشاطي ، وكان بطريركاً بانطاكية قبل ظهور النصرانية ، وكان قوله بالتوحيد المجرّد الصحيح ، وان عيسى عبد الله ورسوله كأحد الانبياء عليهم السلام ، خلقه الله في بطن مريم من غير ذكر ، وانه انسان لا إلهية فيه البتة ، وكان يقول : لا أدري ما الكلمة ولا روح القدس ، (قال) وكان منهم أصحاب مقدينوس - وكان بطريركاً بالقسطنطينية بعد ظهور النصرانية أيام قسطنطين بانيها ، وكان هذا الملك أريوسياً كأبيه ، وكان من قول مقدينوس هذا التوحيد المجرّد ، وان عيسى عليه السلام عبد مخلوق ، إنسان نبي رسول كسائر الانبياء عليهم السلام ، وأن عيسى هو روح القدس وكلمة الله ، وأن روح القدس والكلمة مخلوقان ، خلق الله كل ذلك .

(رسالة الحسن بن أيوب الى أخيه)

وهذه الرسالة من أخ دان بالتوحيد الخالص ، وكتبها إلى أخيه ، وذكر له سبب إسلامه فيها ، ثم ذكر فرق النصرانية الثلاث ، وناقشهم في مذاهبهم وقضاياها واحدة واحدة ، وهي من أمتع الرسائل وأبلغها ، وفيها أدق المباحث وأهمها ، لم تترك شبهة الا كشفتها ، ولا حجة إلا جلتها ، ومن قرأها بتدبر وإمعان علم ما علمناه منها ، فقد سبرت غور المسائل ، وقابلت بين الأشباه والنظائر ، وأتت بأحسن النتائج ، التي تسكن اليها

النفس ويطمئن بها القلب ، ثم هي تزيل الفروق بين الأديان ، وتجعل أهلها عباداً للرحمن ، لا لبني الانسان . وقد أوردها في (الجواب الصحيح) فبلغت ثلاثاً وخمسين صفحة (ج ٢/٣١٢-٣٦٣) وصفحتين من أول الثالث .

ذكر مؤلفها فيها أن مريم ولدت انساناً (عليها السلام) وأنه جرى عليه أحكام الآدميين من غذاء وتربية ، وصحة وسقم ، وخوف وأمن ، وتعلم وتعليم ، لا يتهيأ لكم أنه كان منه في تلك المدة من أسباب اللاهوتية شيء ولا له من أحوال الآدميين كلها — من حاجاتهم وضروراتهم ، وهمومهم ومحنهم وتصرفاتهم — مخرج .

(ابن الله ومعناه)

(قال) : وقد علمتم أن من يسمى بابن الله كثير لا يحصون ، فمن ذلك إقراركم أنكم جميعاً أبناء الله بالمحبة ، وقول المسيح أبي وأبوكم ، والهي وإلهكم في غير موضع من الانجيل ، ثم تسمية (الله) يعقوب وغيره (بنيه) خصوصاً ، فالسبيل في المسيح إذا لم تلحقوه في هذا الاسم بالجمهور ، أن يجري في هذه التسمية مجرى الجماعة الذين اختصوا بها من الأنبياء والأبرار ، ونسبة الملك إياه إلى أبيه داود ، تحقق أن أباه داود ، وان التسمية الأولى (أي ابن الله) على جهة الاصطفاء والمحبة ، وان حلول الروح عليه على الجهة التي قالها متى التلميذ للشعب عن المسيح في الانجيل لستم أنتم متكلمين ، بل روح الله تأتيكم تتكلم فيكم . فأخبر أن الروح تحل في القوم أجمعين وتتكلم فيهم .

(عشرون ألف آية تنطق بعبودية المسيح لله تعالى)

ومن تمام كلام الحسن بن أيوب (٣٦١ من ج ٢) قوله : وإذا نظر في الانجيل وكتب بولص وغيره ممن يحتج به النصارى وجد نحواً من عشرين ألف آية[1] مما فيه اسم المسيح ، وكلها تنطق بعبودية المسيح ، وانه

(١) اي أمارة او علامة .

مبعوث مربوب ، وأن الله اختصه بالكرامات ، ما خلا آيات كثيرة مشكلات ، قد تأولها كل فريق من أولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم على هواهم ، وأخذوا بذلك التأويل الفاسد ، وتركوا المعظم الذي ينطق بعبوديته ،

وقال في أواخر هذه الرسالة :

ومن أعجب العجب أن تكون أمة كتابها ودعوتها ومعبودها واحداً ، يتمسكون بأمر المسيح عليه السلام وتلامذته وانجيله ، وسنته وشرائعه ، وهم مع ذلك مختلفون فيه أشد الاختلاف ، فمنهم من يقول انه عبد ومنهم من يقول إنه إله الخ .

وقد ختم شيخ الاسلام كلام هذه الرسالة بقوله في أول الجزء الثالث من جوابه : هذا آخر ما كتبته من كلام الحسن بن أيوب — وهو ممن كان من أجلاء علماء النصارى ، وأخبر الناس بأقوالهم ، فنقله لقولهم أصح من نقل غيره ، وقد ذكر في كتابه من الرد على ما يحتجون به من الحجج العقلية والسمعية ، وما يبطل قولهم من الحجج السمعية والعقلية — ما يبين ذلك . (قال) ونحن نذكر مع ذلك كلام من نقل مذاهبهم من أئمتهم الخ ثم وصف كتاب (نظم الجوهر) لابن البطريق بترك الاسكندرية وصفاً شاملاً لأخبارهم ومجامعهم واختلافهم ، وسبب إحداثهم ما أحدثوه مع انتصار ابن البطريق لقول الملكية ، والرد على من خالفهم (وفي ص ١٦٩ ج ٣) : ومن أجل من جمع أخبارهم عندهم (أي الطوائف المختلفين في التثليث والاتحاد ، وان كل صنف يحكي أقوالاً غير الأقوال التي حكاها الآخرون) سعيد بن البطريق بترك الاسكندرية في أثناء المائة الرابعة من دولة الاسلام ، وقد فند هذا البترك أقوال النسطورية والملكانية ، وفند شيخ الاسلام أقوال الطوائف كلها بالعقل والنقل ولم يبق زيادة لمستزيد . (وفي ص ٢٢٢ ج ٣) : ذكر ما امتاز به القرآن على التوراة ، (وفي ص ٢٤٤) : ان جمهور المسلمين لا يعلمون نبوة أحد من الانبياء قبل محمد (ﷺ)

الا باخبار محمد (ﷺ) بنبوتهم ، فلا يمكنهم التصديق بنبوة أحد من هؤلاء إلا بعد التصديق بنبوة محمد (ﷺ) .

(ما اتفقت عليه الكتب والرسل)

ثم انتقل في الجواب الصحيح الى ذكر ما اتفقت عليه الكتب والرسل من الأصول الكلية العامة ، وإلى ماجاء في التوراة من الجمع بين التوراة والانجيل والقرآن ، والرسل الثلاثة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام « تجلى الله من طور سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » وإلى بشارة السفر الأول من التوراة بمحمد . وبشائر الزبور به وهو مزامير داود ، وقد ذكرنا قبل هذا شواهد من هذه الكتب الثلاثة المقدسة .

وفي الجواب الصحيح (٢٨٢/٣) قال كثير من العلماء واللفظ لمحمد بن قتيبة ليس بهذا خفاء على من تدبر ولا غموض ، لأن مجيء الله من طور سينا إنزاله التوراة على موسى من طور سينا كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا ، وكذلك يجب أن يكون اشراقه من ساعير ، إنزاله الانجيل على المسيح ، وكان المسيح من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى ناصرة ، وباسمها سمي من اتبعه من نصارى ، وكما وجب أن يكون اشراقه من ساعير المسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران ، انزاله القرآن على محمد (ﷺ) وجبال فاران هي جبال مكة ، (قال) : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة ، فان ادعوا أنها غير مكة ... قلنا أليس في التوراة أن ابراهيم أسكن هاجر واسماعيل (فاران) ، وقلنا دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران ، والنبي الذي أنزل عليه كتاب بعد المسيح ؟ (ثم قال) : ولا يمكن أحداً أن يدعي انه بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأرض ، ولا بعث نبي ، فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا ارسال محمد (ﷺ) ، وهو سبحانه

ذكر هذا بالتوراة على الترتيب الزماني ، فذكر إنزال التوراة ، ثم الانجيل ثم القرآن ، وهذه الكتب نور الله وهداه . والى أماكن هذه الكتب الثلاثة أشار القرآن الكريم ، قال في الجواب الصحيح (ص ٣٨٦) : فقوله تعالى : « والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين » إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التي ظهر فيها نوره وهداه ، وأنزل فيها كتبه الثلاثة : التوراة والانجيل والقرآن ، كما ذكر الثلاثة في التوراة .

(بشائر النبوات بالنبي العربي ، والتصريح باسمه)

ثم ذكر في « الجواب الصحيح » بشائر النبوات بالنبي العربي ، وفي اشعياء : « اسم محمد ، موجود الى الابد » قال أشعياء : يامحمد يا قدوس الرب ، اسمك موجود من الأبد » قالوا فهل بقي بعد ذلك لرائع مقال ، أو لطاعن مجال ؟ (ص ٣٠٧) . وفيه أيضاً التصريح باسمه (أحمد) و (محمد) . وقال أشعياء : إنا سمعنا من أطراف الأرض صوت (مجد) ، وهذا افصاح من أشعياء باسم رسول الله (ﷺ) (٣١٠/٣) . وفي حبقوق التصريح باسم محمد مرتين : « إن الله جاء من التيمن ، والقدوس من جبال فاران ، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد (ﷺ) وامتلأت الأرض من حمده ، شعاع منظره باسم النور ، يحوط بلاده بعزه (الى أن قال) وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء » (ثم قال) : وهذه النبوة لا تليق إلا بمحمد ، ولا تصلح إلا له ، ولا تدل إلا عليه ، فمن حاول صرفها عنه فقد حاول ممتنعاً .

وفي (ج ٤ ص ٥) في كلمة الانجيل وتفسيرها ، قالوا : وقال يوحنا الانجيلي ، قال يسوع المسيح في الفصل الخامس عشر من انجيله : إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء ، وقال يوحنا التلميذ أيضاً عن المسيح أنه قال لتلاميذه : إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ،

وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر يثبت معكم إلى الأبد روح الحق الخ .

وذكر بشارات أخرى من هذه الأناجيل ، وتوسع في شرح هذه البشائر واحدة واحدة ، وجملة جملة ، وبين وجه دلالتها على النبي (ﷺ) وانطباقها عليه دون غيره ، (إلى أن قال) (ص ٤/١٤) : وأيضاً فان معنى الفارقليط إن كان هو الحامد أو الحماد أو الحمد أو الممتز ، فهذا الوصف ظاهر في محمد (ﷺ) فانه وأمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال ، وهو صاحب لواء الحمد .

ثم عقد فصولاً في اعجاز القرآن من وجوه متعددة ، من جهة اللفظ ، والنظم ، والبلاغة ، ومعانيه التي أمر بها ، والمغيبات التي أخبر عنها ، وما وصف بها المعاد ، وما أقامه من الدلائل اليقينية ، والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة ، قال : وكل ماذكره الناس من الوجوه في اعجاز القرآن فهو حجة على إعجازه ، وكل قوم تنبهوا لما تنبهوا له . وعقد فصولاً أخرى في سيرة النبي ، وفي هديه وأوصافه وأخلاقه . وذكر معجزاته في نفسه وفي خلفائه (إلى ص ١٢٠) ثم ما أخبر بوقوعه في الأحاديث الصحيحة . ثم قال بعد سرد اخباره (ﷺ) بالمغيبات (ص١٤٨) : وهذا وأمثاله مما أخبر به من المستقبلات ، فوقع بعده كما أخبر ، ورأى الناس ذلك ، وأما ما أخبر به مما لم يقع إلى الآن فكثير . ثم ذكر شواهد مما تواتر عند علماء التاريخ أو السير ، أو النحو ، أو اللغة ، أو الحديث دون غيرهم ، وبيان أن المحدثين أوثق وأضبط من جميع هؤلاء ، وقال (ص ٢٣٥) : وعامة ماذكرناه من آيات النبي (ﷺ) هي من موارد اجماعهم ، لا من موارد نزاعهم .

وفي (ص ٣٠٦) : والرجل الصادق البار يظهر على وجهه من نور صدقه ، وبهجة وجهه ، سيما يعرف بها .

ونقل عن القاضي عياض – في صدق نبوة النبي – قوله : اذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمناه من جميل أثره ، وحميد سيره ، وبراعة علمه ، ورجاحة عقله وحلمه ، وجملة كماله ، وجميع خصاله ، وشاهد حاله وصواب مقاله ، لم يمتر في صحة نبوته ، وصدق دعوته ، (قال) : وكفى هذا غيرَ واحد في اسلامه والايمان به .

في أواخر الفصل الذي ختم به شيخ الاسلام « الجواب الصحيح » مانصه : وفي خبر الجلندي ملك غسان لما بلغه أن رسول (ﷺ) يدعوه إلى الاسلام ، فقال الجلندي : والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وأنه يتغلب فلا يبطر ، ويُغلَب فلا يضجر ، وبفي بالعهد ، وينجز بالموعود ، وأشهد أنه نبي ، وقال نفطويه في قوله تعالى : « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » هو مثل ضربه الله لنبيه ، يقول : يكاد منظره يدل على نبوته وإن لم يتل قرآناً كما قال ابن رواحة :

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر